



المركز القومى للترجمة

خورخى بوكاى

حكايات للتفكير

ترجمة: أمل محمد بكرى
مراجعة: عائشة محمود سويلم

2310

حكايات للتفكير

تأليــف: خورخى بوكـــــاى

ترجمة: أمـــل محمد بكـــرى

مراجعة: عائشة محمود سويلم



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2310
- حكايات للتفكير
- خورخى بوكاى
- أمل محمد بكرى
- عائشة محمود سويلم
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
CUENTOS PARA PENSAR
Por: Jorge Bucay

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوكاى، خورخى.
حكايات للتفكير / تأليف: خورخى بوكاى، ترجمة: أمل محمد بكرى، مراجعة: عائشة محمود سويلم
ط١،القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤
٢٢٨ ص، ٢٠سم
١- القصص الأرجنتينية.
(أ) بكرى، أمل محمد (مترجمة)
(ب) سويلم، عائشة محمود (مراجعة)
(جـ) العنـوان ٨٦٣

رقم الإيداع ١٩٠٠٨ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى : 978-977-718-081-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتــويات

إهداء المترجمة

إلى من أهديانى الحياة وعلَّمَانى كيف أحياها

أبى و أمى

إلى من كانوا دائمًا بجانبى

إخوتى

إلى رُوحه الطاهرة التى طالما كانت ترافقنى

جدى

إلى كل من وَقَفَ بجانبى وشجَّعَنى ودعمنى

إلى كل عينٍ رعَتنى وقلبٍ أحبنى ولسانٍ لهجَ بالدعاء لى

الإهداء المؤلف

إلى زوجتي بيرلا، مع حبي وجزيل شكري

مقدمة
(الحقائق الثلاث)

عاش كلٌ منا يبحث عن الحقيقة، وفى طريقنا وجدنا العديد من الأفكار التى استهوتنا وسكنتنا بما يكفى من قوة بحيث تـؤثر علـى منظومة معتقداتنا.

ومع ذلك، وبمرور الوقت، انتهينا إلى اسـتبعاد الكثيـر مـن الحقائق؛ لأنها لم تتحمل تساؤلاتنا الداخلية، أو لأن "حقيقـة جديـدة" متناقضة مع تلك الحقائق، كانت تتنافس بداخلنا فى الحيز نفـسه، أو ببساطة لأن تلك الحقائق لم تعد كذلك.

وعلى كل حال، فإن تلك المفاهيم التى اعتبرناها مرجعياتنا لم تعد كذلك، ووجدنا أنفسنا فجأة سائرين على غير هدى. فقد أصبحنا نقود دفة مركبنا؛ مدركين ما بأيدينا من إمكانات، ولكننا غير قادرين على رسم طريق موثوق فيـه.

وبينما أكتب ذلك، تذكرت فجأة حكاية (الأمير الصغير) للكاتب أنطوان دو سان- إكسبيرى:

"فى أثناء رحلاته فى الكواكب الصغيرة بالمجرة تقابل مع عالم جغرافى كان يدون فى سجل كبير الجبال والأنهار والنجوم.

أراد الأمير الصغير أن يسجل زهرته- التى كان قد تركها فى كوكبه- ولكن العالم قال له:

- نحن لا نقوم بتسجيل الأزهار، لأنه لا يمكن تسجيل الأشياء الزائلة.

شرح الجغرافى للأمير الصغير أن لفظ زائل يعنى أنه مهدد بأن يختفى سريعًا.

عندما سمع الأمير الصغير هذا حزن كثيرًا؛ إذ أدرك أن زهرته زائلة..."

ولهذا فأنا من جانب أتساءل: هل توجد الحقائق الصلبة كالصخر والثابتة كالتضاريس؟ أو أن الحقيقة ستكون فقط مفهومًا يحمل بداخله جوهر ما هو عارض وهش من الأزهار؟ ومن ناحية أخرى، من منظور مكبر للعالم:

أليست الجبال والأنهار والنجوم مهددة هى الأخرى بأن تختفى قريبًا؟

فمتى ستحيين "قريبًا" بالمقارنة بلفظ "دائمًا"؟

أليست الجبال- من هذا المنظور- هى الأخرى زائلة...؟

أعتقد أن ما أريد أن أفعله اليوم هو محاولة الكتابة عن بعض الأفكار "الجبال" والأفكار "الأنهار" والأفكار "النجوم" التى التقيت بها فى طريقى.

فبعض الحقائق التى هى بالتأكيد مشكوك فيها عند آخرين، ستكون ذات يوم كذلك عندى أيضًا. ولكن يبدو لى اليوم أنها من القوة والجدارة بالقدر الذى تمنحه إياها نظرة "حسن الإدراك" التى لا تنفد.

أولاً: أول هذه الأفكار الموثوق فيها تُشَكِّل جزءًا لا ينفصل من فلسفة الجشطالت(*) وهى فكرة معرفة أن:

كل شيء هو كما هو

أكتب هذا وأفكر فى خيبة الأمل التى يشعر بها كل من يقرأ ما أكتبه: "كل شيء هو كما هو! هل هذه هى الحقيقة؟".

وهذا المفهوم- البدهى وغير المعلوم أيضًا- يحتوى فى حد ذاته على ثلاث فرضيات وهو ما يبدو لى مهمًا أن نلاحظه: معرفة أن "كل شيء هو كما هو" يشكل قبولاً بحقائق الأمور والأشياء والمواقف كما هى.

فالحقيقة ليست كما تناسبنى أن تكون.

ليست كما يجب أن تكون.

ليست كما قالوا لى إنها ستكون.

ليست كما كانت.

ليست كما ستكون غدًا.

(*) مدرسة فى علم النَّفس تركز على دراسة التجربة بوصفها وحدة متكاملة، تأسست فلسفة الجشطالت حوالى عام ١٩١٢م على يد ماكس ويرثيمر، وهو عالم نفس ألمانى. (المترجمة)

فحقيقتى إلى الخارج هى كما هى.

وعندما يسمعنى المرضى والتلاميذ أكرر هذا المفهوم، يصرون على أن يروا بداخله تلميحًا بالاستسلام وباتخاذ موقف متحجر وبالتخلى عن الحيطة والحذر.

أعتقد أن من المفيد تذكر أن التغيير يمكن أن يحدث فقط عندما نكون مدركين للموقف الحالى. فكيف نستطيع تحديد الطريق إلى نيويورك دون أن نعرف فى أى بقعة فى العالم نحن؟

يمكننى فقط أن أبدأ طريقى من نقطة البداية الخاصة بى، وهذا يعنى أن أتقبل الأشياء هى كما هى.

الشق الثانى الذى يتعلق مباشرة بهذه الفكرة هو:

أنا كما هو أنا

مرة أخرى:

أنا لست كما أريد أن أكون.

أنا لست كما يجب أن أكون.

أنا لست كما أرادت والدتى أن أكون.

ولا حتى كما كنت فى الماضى.

فأنا كما هو أنا.

بالنسبة إلىَّ أعتقد أن الأمراض النفسية كافة التى نعانى منها، تأتى من رفض هذه الجملة.

والأمراض العصبية كافة تصيبنا عنـــدما نحـــاول أن نكـــون أشخاصًا غيرنا.

ففى كتاب "دعنى أحكى لك" كتبت عن رفض الذات:

... بدأ كل هذا فى ذلك اليوم المليء بالغيوم.

عندما لم تعد تقول بفخر:

أنا أكون...

وبين شعورك بالخجل والخوف

أحنيت رأسك وقمت بتغيير كلماتك ومواقفك

بسبب فكرة مرعبة:

أنا يجب أن أكون...

وإذا كان من الصعب تقبل أننى كما هو أنا، كلما كان من الصعب علينا أحيانًا تقبُّل الاشتقاق الثالث للمفهوم هو أن " كل شىء هو كما هو":

أنت كما هو أنت

بمعنى:

أنت لست من أحتاج أن تكون.

لست كما كنت.

أنت لست كما يناسبنى أن تكون.

أنت لست كما أريدك أن تكون.

أنت كما هو أنت.

إن تقبُّل هذا يعنى احترامك لذاتك وعدم مطالبتك لنفسك بأن تتغير.

فمنذ قليل بدأت أُعرِّف الحب الحقيقى بأنه تلك **المهمة المجردة من أى غرض لخلق مساحة حتى يكون الآخر كما هو.**

تعد "الحقيقة الأولى" هذه الأساس (بمعناها المُزدَوج، الأول والأساسى) لكل علاقة راشدة، وتتجسد هذه الفكرة عندما أتقبلك كما هو أنت، وأشعر أنك أيضًا تتقبلنى كما هو أنا.

الحقيقة الثانية التى أعتقد أنه لاغنى عنها، وقمت باستنباطها من الحكمة الصوفية:

ليس هناك شىء طيب تحصل عليه بلا ثمن.

ومن هنا تولدت لدى على الأقل فكرتان:

الأولى: إننى إذا كنت أرغب فى شىء طيب، يجب أن أعرف أننى لابد أن أدفع ثمنه بالطبع، الثمن لا يعنى دائمًا المال (فلو كان مالاً فقط، لكان الأمر غاية فى السهولة!)، يكون الثمن أحيانًا غاليًا وأحيانًا أخرى رخيصًا جدًا، لكنه دائمًا موجود؛ لأنه ليس هناك شىء طيب تحصل عليه مجانًا.

الثانية: أدركت أنه إذا حصلت على شىء لم يكن يخطر ببالى الحصول عليه، أو إذا حدث لى شىء طيب، أو إذا كنت أعيش حالة من السرور والمتعة لأننى فزت بتلك الأشياء؛ فقد دفعت ثمنها، لذا فأنا أستحقها.

(فلينتبه المتشائمون ولتحبط عزيمة الانتهازيين؛ أريد أن أوضح أن الثمن يكون دائمًا مقدمًا؛ فقد دفعت بالفعل ثمن الطيب من العيش، فلا يوجد دفع بالأجل!).

يتساءل بعض الذين يسمعونني أقول ذلك:

وماذا عن الأمر السيئ؟

أليس حقيقيًا أن ماهو سيئ أيضًا ليس مجانًا؟

فإذا أصابني مكروه، أليس هذا أيضًا بسبب شيء قد فعلته؟

ألستُ بطريقة ما أستحقه؟

ربما يكون صحيحًا، ومع ذلك فإنني أتحدث عن حقائق عامة، هي بالنسبة إليَّ لا نقاش فيها، وبلا استثناءات. وبالنسبة إليَّ فإن تأكيد "أنني أستحق كل ما يحدث لي بما فيه من شر"، ليس بالضرورة أن يكون حقيقيًا.

فيمكنني تأكيد أنني أعرف بعض الأشخاص الذين أصابتهم أحداث بائسة ومؤلمة، التي من دون أدنى شك، لم يكونوا يستحقونها!

إن تبني هذه الحقيقة (ليس هناك شيء طيب تحصل عليه بلا ثمن)؛ يعد تخليًا إلى الأبد عن الفكرة الطفولية القائلة بأن شخصًا ما يجب أن يعطيني شيئًا، فقط لأنني أريده، وأن الحياة يجب أن تعطيني ما أتمناه، "لأنني أرغب فيه"، عن طريق الحظ وبطريقة سحرية.

الثالثة: الفكرة الثالثة أعتقد أنها نقطة مرجعية، ومن الممكن قولها بالطريقة الآتية:

من المؤكد أنه لا يوجد إنسان يمكنه أن يفعل كل ما يريده، ولكن كل إنسان بإمكانه ألا يفعل أبدًا ما لا يريد أن يفعله.

وأكرر لنفسى مرة أخرى:

يجب ألا أفعل أبدًا ما لا أريد أن أفعله.

إن اتخاذ هذا المفهوم مرجعًا حقيقيًا، بمعنى أن تعيش ملتــصقًا بهذه الفكرة، ليس بالشىء السهل. وهو بشكل خـــاص لـــيس مجانـــا. (لايمكن الحصول على شىء جيد بلا ثمن، وهذا مفهوم جيد).

أقول إننى إذا كنت راشدًا، فلا يوجد من يمكنه إجبارى على فعل ما لا أريد أن أفعله.

فى كل الأحوال، أقصى شىء من الممكن أن يحدث لى أن يكون الثمن الذى سأدفعه مقابل ذلك هو حياتى نفسها.

(ليس الأمر أننى أريد التقليل من شأن هذا الثمن، ولكننى ما زلت أفكر أن هناك فرقًا بين الاعتقاد بأننى لاأستطيع أن أفعل شيئًا ومعرفة أن فعل هذا الشىء سيكلفنى حياتى).

ومع ذلك- فى حياتنا اليومية، ومع مرور الأيام- تنخفض الأثمان كثيرًا. وبشكل عام، فإن الشيء الوحيد الذى يعد ضروريًا إضافة إلى كل ذلك، هو القدرة على التخلى عن أن يرضى الآخرون عنى، وأن يصفقوا لى وأن يحبونى. إن الثمن- كما يروق لى أن أطلق عليه- الذى يدفعه المرء عندما يتجرأ على أن يقول "لا"، هو أنه يبدأ فى اكتشاف بعض الأوجه المجهولة فى أصدقائه: القفا والظهر وكل تلك الأجزاء التى يمكن رؤيتها فقط عندما يغادر الآخر.

تعد هذه الحقائق الثلاث بالنسبة إلىَّ الأفكارالجبال والأفكارالأنهار والأفكارالنجوم. إنها حقائق لا تزال تثبت صحتها على مر الزمن واختلاف الظروف.

فهى مفاهيم غير متعلقة بلحظات محددة، بل بكل اللحظات التى نطلق عليها فى مجملها عادة لفظ "حياتنا".

الحقائق الجبال: كى نستطيع أن نبنى منزلنا فوق قاعدة صلبة.
الحقائق الأنهار: كى نستطيع أن نروى عطشنا ونسبح فيها باحثين عن آفاق جديدة.
الحقائق النجوم: كى تكون دليلنا فى الليالى الأكثر ظلمة...

الباحث

منذ عامين، عندما انتهيت من الحديث إلى مجموعة من الأزواج، رويت لهم حكاية، نوعًا من هدية الوداع، كما اعتدت أن أفعل دائمًا. وكانت المفاجأة، عندما طلب هذه المرة أحد أفراد المجموعة أن يتحدث، وعرض عليَّ أن يهديني قصة.

وقد أحببت تلك الحكاية كثيرًا، وأكتبها الآن

إحياءً لذكرى صديقي خاي رابون.

إنها قصة رجل يمكنني وصفه بالباحث...

والباحث هو من يبحث عن الشيء وليس بالضرورة من يجد هذا الشيء.

أيضًا ليس بالضرورة أن يعرف ما يبحث عنه، فهو ببساطة شخص حياته عبارة عن رحلة بحث.

ذات يوم شعر الباحث أنه يجب عليه أن يذهب إلى مدينة (كامير)، وكان قد تعلم أن يستجيب لتلك الأحاسيس التي تأتيه من مكان مجهول من داخله؛ لذا ترك كل شيء ورحل.

وبعد يومين من السفر عبر الطرق المتربة رأى من بعيد مدينة (كامير)، وقبل الوصول إلى القرية بقليل، جذب انتباهه ربوة على يمين الطريق كانت مغطاة تمامًا بلون أخضر رائع، وكان هناك

الكثير من الأشجار، والعصافير، والورود الساحرة، وكانت تلك الربوة محاطة بالكامل بسياج صغير من الخشب اللامع.

وقد دعته بوابتها البرونزية الصغيرة للدخول.

فجأة شعر كأنه نسى القرية، واستسلم لرغبته فى الراحة ولو لبضع دقائق فى ذلك المكان.

عَبَرَ الباحث البوابة، وبدأ يسير ببطء بين الأحجار البيضاء؛ التى كانت تبدو كأن يد الصدفة قد وزعتها بين الأشجار.

ترك الباحث عينيه ترتاح كالفراش على كل جزء صغير لتلك الجنة متعددة الألوان.

كان لديه عينا باحث، وربما لذلك استطاع أن يكتشف تلك الكتابة المنقوشة على إحدى الأحجار والتى نقش عليها:

"عبدول طارق، عاش ثمانى سنوات وستة أشهر وأسبوعين وثلاثة أيام".

فوجئ قليلاً عندما أدرك أن هذا الحجر لم يكن مجرد حجر فقط بل شاهد قبر.

شعر بالأسى لمجرد التفكير فى أن طفلاً بهذا السن الصغير مدفون فى ذلك المكان.

نظر حوله فوجد أن الحجر الذى بجواره أيضًا نُقِش عليه كتابة، اقترب ليقرأها فوجدها تقول: "يامير كاليب، عاش خمس سنوات وثمانية أشهر وثلاثة أسابيع".

شعر الباحث بصدمة شديدة.

هذا المكان الجميل ليس إلا جبَّانة، وكل حجر ما هو إلا شاهد قبر.

بدأ الباحث يقرأ شواهد القبور الواحد تلو الآخر. كان منقوشًا عليها كلها كتابات متشابهة: الاسم ومدة الحياة الدقيقة لكل متوفى.

ولكن ما جعله يشعر بالفزع هو اكتشافه أن أطول المتوفين عمرًا قد تعدى بالكاد أحد عشر عامًا فقط، وعندها شعر بأسى شديد، فجلس وانخرط فى البكاء.

اقترب منه حارس المقبرة الذى كان مارًا بالقرب من هناك، نظر إليه وهو يبكى فى صمت للحظات، ثم سأله إذا ما كان يبكى أحد أقاربه.

- لا، ليس لى أقارب هنا- أجاب الباحث- ماذا حدث لهذه القرية؟ أى شىء رهيب قد حل بتلك المدينة؟ لماذا كل هؤلاء الأطفال

الموتى المدفونين في ذلك المكان؟ ما تلك اللعنة الرهيبة التي حلت بهؤلاء الناس، والتي أجبرتهم على إنشاء مقبرة للأطفال؟

أجابه الرجل العجوز وقد علت شفتيه ابتسامة قائلاً:

- هدئ من روعك يا سيدي، ليس هناك أية لعنة، كل ما هنالك أننا هنا لدينا عادة قديمة. سوف أحكيها لك:

"عندما يُكْمِل الفتى هنا خمسة عشر عامًا، يقوم والداه بإهدائه دفترًا صغيرًا كالذي أحمله أنا؛ ليعلقه في عنقه، وهو تقليد فيما بيننا، ومن تلك اللحظة، كلما استمتع أحد منا بشيء للغاية، يفتح دفتره ويدوِّن فيه:

على اليسار الشيء الذي استمتع به.

وعلى اليمين مدة استمتاعه بذلك الشيء.

فعلى سبيل المثال تعرف على خطيبته وأغرم بها، فكم دام ذلك الشعور الجارف، وتلك اللذة الناتجة عن معرفته إياها؟ هل دام أسبوعًا؟ اثنين؟ ثلاثة أسابيع ونصف؟

وبعد ذلك، كم دام الشعور بأول قبلة؟ والمتعة الرائعة لأول قبلة كم دامت؟ هل دامت دقيقة ونصف، أى زمن القبلة فقط؟ أو يومين؟ أو أسبوعًا؟

والحمل ولحظة ولادة أول ابن؟

وعرس الأصدقاء؟

والرحلة إلى المكان الذى تحلم به؟

ولقاؤك بأخيك بعد عودته من بلد بعيد؟

كم دام الاستمتاع بتلك المواقف؟ هل لساعات؟ هل لأيام؟

وهكذا نستمر فى تدوين كل لحظة نستمتع بها بحق فى ذلك الدفتر... كل لحظة.

وعندما يتوفى أى شخص طبقًا لعاداتنا نفتح دفتره

ونجمع زمن استمتاعه

لنكتبه فوق قبره.

لأن هذا الزمن بالنسبة إلينا

هو بحق الزمن الحقيقى والوحيد الذى يعيشه الإنسان.

العدو الرهيب

ورد إلى ذهنى فكرة هذه الحكـاية عند سمـاعى لحكاية كان يرويها "إنريكى ماريسكـال"(*). حينئذٍ سمحت لنفسى بتطوير هذه الحكاية من أجـل تحويلها إلى قصة أخـرى تحمل رسالة أخرى ومعنى آخر، وذات مساء قمت بإهدائها إلى صديقى "نوربى" كما هى الآن.

يحكى أنه فى يوم من الأيام كانت هناك مملكة فى مكان بعيـد ومفقود، وكان هناك ملك يرغب بشدة أن يشعر أنه ذو سلطة، كان لا يمكن إشباع رغبته فى السلطة فقط باستحواذه عليهـا؛ ولكنـه كـان يحتاج أيضًا أن يُعَبِّر الجميع عن إعجابهم بكونه ذا سـلطة ونفـوذ. وكما كانت تفعل زوجة أب "سنوايت " فهى لم تكن تكتفـى برؤيـة نفسها جميلة، كان الملك أيضًا يحتاج أن يرى نفسه فى مرآة تخبـره بمدى قوته. لم يكن لديه مرآة سحرية، ولكنه كان يعتمد على العديـد من الخدم ورجال الحاشية حوله، الذين كان يسألهم إذا كان هو أكثـر الأشخاص سلطة فى المملكة.

على نسق واحد، كان الجميع يرد بالإجابة نفسها:

(*) كاتب أرجنتينى، وهو أستاذ فى الفلسفة. كتب العديد من الأعمال الإبداعية من بينها: "سحر العاطفة" و"سحر السعادة". (المترجمة)

- يا صاحب السمو، أنت أكثر الأشخاص سلطة، ولكنك تعلم أن الساحر لديه قدرة ليست لدى أحد غيره؛ (فهو يستطيع أن يقرأ المستقبل).

وفى هذه الحقبة، كان يطلق على الكميائيين والفلاسفة والمفكرين وعلماء الدين والمتصوفين عمومًا لفظ «سحرة».

وكان الملك يشعر بالغيرة الشديدة من ساحر المملكة، فإنه لم يكن يشتهر فقط بكونه رجلاً طيبًا وكريمًا، ولكن بالإضافة إلى ذلك كان يحظى بحب الشعب له وإعجابه به واحتفائه بوجوده وحياته بينهم.

ولم يكن الشعب يقول الشيء نفسه عن الملك.

ربما لأن الملك كان يحتاج دائمًا أن يُظهر أن الحكم بيده، لم يكن عادلاً ولا متزنًا، وبالأخص لم يكن محبًا لعمل الخير.

وذات يوم عندما ضاق ذرعًا من إخبار الناس له بمدى قوة الساحر ومدى حب الشعب له، أو ربما مدفوعًا بهذا الخليط من مشاعر الغيرة والخوف التى تُولّد الحسد، دبر الملك خطة فؤداها:

أن يقوم بتنظيم احتفال كبير، ويقوم بدعوة الساحر إلى هذا الاحتفال، وعقب العشاء، يلفت انتباه الجميع، ويدعو الساحر أن يأتى إلى وسط القاعة، وأمام رجال البلاط الملكى، يقوم بسؤاله إذا كان بالفعل يستطيع قراءة المستقبل؛ سيكون أمام الضيف احتمالان: إما أن

يقول إنه لا يعرف، وهكذا يكون قد خذل إعجاب الآخرين به، وإما أن يرد بالإيجاب، مؤكدًا سبب شهرته، عندها سيطلب منه الملك الإفصاح عن التاريخ الذى سيتوفى فيه ساحر المملكة. وسيجيب الساحر بأى يوم، لا يهم ما هو هذا اليوم. كان الملك ينوى إشهار سيفه وقتل الساحر فى تلك اللحظة، وهكذا يحقق هدفين بضربة واحدة؛ الأول: التخلص من عدوه إلى الأبد، والثانى: إظهار أن الساحر لم يتمكن من قراءة المستقبل نظرًا لأنه أخطأ فى نبوءته، وهكذا سيتم القضاء على الساحر والأسطورة الخاصة بقدراته فى ليلة واحدة...

وبدأت التجهيزات فى الحال، وبعد فترة وجيزة جاء يوم الاحتفال.

وبعد الانتهاء من وليمة العشاء العظيمة، دعا الملك الساحر إلى منتصف القاعة وتوجَّه إليه قائلاً:

هل صحيح أنك تستطيع قراءة المستقبل؟

أجاب الساحر: قليلاً.

سأل الملك: وهل تستطيع قراءة ما سيحدث لك فى المستقبل؟

أجاب الساحر: قليلاً.

مستكملاً حديثه قال الملك: إذن أريد منك أن تعطينى برهانًا على ذلك، أريد أن أعرف فى أى يوم ستموت؟ ما هو تاريخ وفاتك؟

ابتسم الساحر ونظر فى عينيه ولم يُجِب.

ماذا يحدث أيها الساحر؟ - قال الملك مبتسمًا- ألا تعلم؟ أليس صحيحًا أنك تستطيع قراءة المستقبل؟

ليس الأمر كذلك- أجاب الساحر- ولكن ما أعرفه ليس لدىَّ الجرأة أن أخبرك به.

قال الملك: كيف لا تجرؤ؟ أنا سيدك وآمرك أن تخبرنى. يجب أن تعلم أنه من المهم للمملكة معرفة متى ستفقد الشخصيات البارزة لديها، أجبنى متى سيموت ساحر المملكة؟

وبعد فترة صمت يشوبه التوتر، نظر إليه الساحر وقال:

لا أستطيع تحديد تاريخ لأخبرك به، ولكن ما أعرفه هو أن وفاة الساحر ستكون بالتحديد قبل وفاة الملك بيوم واحد.

وعندها تجمد الوقت لبعض اللحظات، وسَرت همهمة بين المدعويين.

كان الملك يقول دائمًا إنه لا يؤمن بالسحرة ولا بنبوءاتهم، ولكنه بالفعل لم يجرؤعلى قتل الساحر.

وببطء، أخفض الملك ذراعيه وظل صامتًا.

تضاربت الأفكار فى رأسه.

وأدرك أنه كان مخطئًا.

لقد كان كرهه للساحر أسوأ ناصح له.

سأله الضيف: يا صاحب السمو، لقد علا وجهك الشحوب. ماذا حدث لك؟

أجاب الملك: أشعر أننى لست على ما يـرام، سـأذهب إلـى حجرتى، أقدِّر مجيئك...

وبحركة مرتبكة دار فى صمت متوجهًا إلى جناحه الخاص.

وفكر فى أن الساحر كان ماكرًا؛ فقد أعطى الجواب الوحيد الذى كان من الممكن أن يتجنب به موته.

هل من الممكن أن يكون قد تنبأ بأمر وفاته؟

لا يمكن أن تكون نبوءته حقيقية، ولكن ماذا لوكانت حقيقية؟

شعر الملك بالدوار مما حدث...

رجع الملك أدراجه وقال بصوت عالٍ: أيهـا الـساحر إنـك مشهور فى المملكة بحكمتك. أرجو أن تبقى هذه الليلة فـى القـصر، فإننى أريد أن أستشيرك بشأن بعض القرارات الملكية فى الصباح.

– يا صاحب الجلالة سيكون هذا شرفًا لى... أجاب الضيف منحنيًا احترامًا للملك.

أعطى الملك أوامر لأفراد حراسته الشخصية كى يصحبوا الساحر إلى الغرف المخصصة للضيوف فى القصر، وأن يقوموا بحراسة باب غرفته ليطمئن أنه لن يصيبه مكروه.

فى تلك الليلة خاصم النوم عينى الملك، كان قلقلاً جدا بسبب التفكير فيما يمكن أن يحدث إذا سبَّب الطعام ألمًا للساحر، أو إذا حدث له مكروه فجأة أثناء الليل، أو ببساطة إذا حانت ساعة موته.

وفى الصباح الباكر، قرع الملك باب الجناح الخاص بضيفه.

طوال حياته لم يخطر بباله قط استشارة أى شخص قبل اتخاذ قراراته، ولكن هذه المرة عندما استقبله الساحر وجه إليه الملك السؤال... فقد كان فى حاجة إلى أى عذر يبرر به زيارته.

وقد أعطاه الساحر بحكمته الإجابة الصحيحة والمبتكرة والعادلة.

أثنى الملك على ذكاء ضيفه، تقريبًا دون أن يسمع الإجابة، وطلب منه أن يبقى ليوم آخر، بزعم «مشاورته» فى أمر آخر... (كان الملك يريد أن يطمئن على أنه لن يصيبه أى مكروه).

وقَبِل الساحر الذى كان يتمتع بالحرية التى لا يحصل عليها سوى الملهمين.

ومنذ ذلك الحين، صباح أو مساء كل يوم، كان الملك يذهب إلى الجناح الخاص بالساحر لأخذ مشورته ويتعهد بأخذ مشورته فى أمر جديد فى اليوم التالى.

ولم يمض الكثير من الوقت حتى أدرك الملك أن نصائح مساعده الجديد كانت دائمًا سديدة، وأصبح دون أن يلاحظ ذلك يضع فى اعتباره هذه النصائح قبل أن يتخذ أى قرار من قراراته.

ومضت الشهور وبعدها الأعوام.

وكالعادة ، **فإن مصاحبة العلماء تجعل الجاهل أكثر علمًا.**

وهذا ما حدث شيئًا فشيئًا؛ أصبح الملك أكثر عدلاً.

لم يعد مستبدًا ولا متسلطًا كما كان فى السابق، فلم يعد فى حاجة إلى الشعور بكونه صاحب سلطة، وبالتأكيد من أجل هذا لم يعد فى حاجة إلى إظهار قدراته.

فقد بدأ يتعلم أيضًا أن التواضع له مزاياه.

وبدأ يمارس حكمه بطريقة أكثر علمًا وأكثر طيبة.

وبدأ شعبه يحبه كما لم يحبه من قبل.

أصبح الملك يذهب لرؤية الساحر ليس لسؤاله عن صحته، ولكن كان يذهب إليه ببساطة ليتعلم، أو ليشاركه فى اتخاذ القرارات أو ببساطة أكثر ليتجاذب معه أطراف الحديث.

ووصل الحال بأن أصبح الملك والساحرصديقين حميمين.

وفى يوم ما، بعد انقضاء أربع سنوات على ذلك العشاء، تذكر الملك دون أية أسباب أن الرجل الذى يعتبره الآن أعز أصدقائه كان فى السابق ألد أعدائه.

وتذكر الخطة التى كان قد دبرها للتخلص منه، وأدرك أنه لا يستطيع الاستمرار فى الاحتفاظ بهذا السر دون الشعور بأنه منافق.

استجمع الملك شجاعته وذهب إلى غرفة الساحر، قرع الباب، وبمجرد دخوله بادره قائلاً:

أخى لدى شىء يضيق به صدرى، أريد أن أرويه لك.

قال الساحر: أخبِرنى وأرح قلبك.

فى تلك الليلة التى دعوتك فيها على العشاء وسألتك عن ميعاد وفاتك، فى الحقيقـــة لم أكن أريد معــرفة أى شىء عن مستقبلــك؛

فقد عزمت على قتلك أيًا كانت إجابتك، أردت أن يقضى موتك غير المتوقع على شهرتك كعراف، فقد كنت أكرهك لأن الجميع كان يحبك، كم أشعر بالخجل.

وتنهد الملك بعمق ثم تابع حديثه قائلاً:

تلك الليلة لم يكن لدى الجرأة على قتلك والآن ونحن أصدقاء وأكثر من أصدقاء، فنحن الآن شقيقان، أشعر بالفزع بمجرد التفكير فى كل ما كنت سأفقده لو كنت قد قمت بفعل ذلك، واليوم أشعر أننى لا أستطيع الاستمرار فى أن أخفى عنك ذنبى العظيم. كنت فى حاجة لأن أخبرك بكل هذا حتى تسامحنى أو تحتقرنى، ولكن دون خداع.

نظر إليه الساحر وقال له:

لقد تأخرت كثيرًا حتى استطعت إخبارى بذلك. ولكن على كل حال، يسعدنى أنك قمت بهذا، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذى سيسمح لى أن أخبرك **أننى كنت على علم بما تنتوى القيام به.** عندما وجَّهْتَ إلىَّ ذلك السؤال وداعبت بيدك مقبض سيفك كانت نيتك واضحة، لم يكن هناك حاجة لأن أكون عرافًا كى أدرك ما كنت تفكر فيه.

وابتسم الساحر ووضع يده على كتف الملك.

الرد العادل على صراحتك، يجب أن أخبرك أننى أيضًا قد كذبت عليك، أعترف لك أننى قمت باختراع هذه القصة السخيفة لموتى قبل موتك لأعلمك درسًا، الدرس الذى لم تستطع تعلمه حتى اليوم، وربما يكون هو أهم درس أعطيه لك.

"تمضى فى هذا العالم نكره ونرفض الآخرين وفى أنفسنا أشياء نعتقد أنها حقيرة أو غير مفيدة أو أنها تمثل تهديدًا لنا... ومع ذلك، إذا أعطينا أنفسنا وقتًا، لأدركنا فى النهاية كيف من الصعب علينا أن نحيا دون تلك الأشياء التى كنا نرفضها فى وقت آخر".

إن موتك يا صديقى العزيز سيأتى فى اليوم المحدد له وليس قبل ذلك بدقيقة واحدة. من المهم أن تعرف أننى عجوز ومن المؤكد أن يوم وفاتى قد اقترب، ولا يوجد سبب يجعلك تفكر فى أن رحيلك مرتبط برحيلى، إن حياتينا قد ارتبطتا ببعضهما البعض وليس وفاتنا.

تعانق الملك والساحر واحتفلا وشربا نخب الثقة التى شعر بها كلٌ منهما فى هذه العلاقة التى استطاعا بناءها معًا.

وتحكى الأسطورة

أنه بشكل غامض

فـــى تلـــك الليلـــة نفسهـــا

توفى الساحر بينما كان نائمًا

وفى اليوم التالى علم الملك بالخبر السيئ، وشعر بالحزن. لـم يكن قلقًا من فكرة موته؛ فقد تعلم من الساحر عـــدم الاكتـــراث لأى شىء، وبالأخص بفكرة بقائه فى هذا العالم.

كان حزينًا على موت صديقه، كم كانت مصادفة غريبة أن يستطيع الملك رواية كل هذا للساحر تحديدًا فى تلك الليلة التى تسبق ليلة وفاته.

ربما بطريقة ما، استطاع الساحر أن يجعل الملك يخبره بذلك؛ ليتمكن من تخليصه من شعوره بالخوف من الموت فى اليوم التالى.

وليجعله يتخلص من مخاوفه القديمة، كان آخر فعل للساحر يدل على الحب.

ويُحكى أن الملك استيقظ وحفر بيديه قبرًا لصديقه الساحر فى الحديقة تحت نافذته مباشرةً.

وبعد أن قام بدفن جثمانه هناك، ظل بقية اليوم بجانب قبره يذرف الدموع كما تُذرف فقط على فقد أعز المقربين.

وعندما حل المساء، عاد الملك إلى غرفته.

وتحكى الأسطورة أنه فى تلك الليلة نفسها، وعقب وفاة الساحر بأربع وعشرين ساعة توفى الملك على فراشه أثناء نومه.

ربما كان الأمرمصادفة...

ربما بسبب الألم...

ربما ليؤكد أنه تعلم الدرس الأخير الذى أعطاه له أستاذه.

لا أريد أن أعرف

إذا كان حقيقيًا أنك لم تعد تحبنى

أطلب منك

أرجوك

ألاَّ تقول لى ذلك!

فاليوم أحتاج

مازلت أحتاج

أن أسبح

ببراءة فى أكاذيبك...

سأنام مبتسمًا

وفى هدوء تام

سأستيقظ

فى الصباح الباكر

وسأعود لأبحر

أعدك بذلك...

ولكنى هذه المرة

دون أدنى اعتراض أو مقاومة

سأغرق بإرادتى ودون أية شروط

فى بحر هجرك العميق الذى لا نهاية له...

خوان سينبيرناس
(... أو فن المساواة فيما هو أدنى)

كان هناك رجل يدعى خوان سينبيرناس(*)، وكان يعمل حطابًا.

ذات يوم، اشترى خوان منشارًا كهربائيًا معتقدًا أنه سيخفف كثيرًا عنه أعباء عمله.

كان من الممكن أن تكون الفكرة أكثر نفعًا لو أخذ خوان حيطته، أو أنه تعلم كيفية استعمال المنشار، لكنه لم يفعل ذلك.

وذات صباح، بينما كان يعمل فى الغابة، لم يأخذ الحطّاب حذره عند سماعه عواء ذئب؛ فانزلق المنشار من يده وأصيب بجروح خطيرة فى ساقيه.

لم يستطع الأطباء فعل شيء لإنقاذ ساقيه، وكأن خوان سينبيرناس قد وقع ضحية النبوءة المحددة لاسمه، فأصبح بصورة نهائية جليسًا على كرسى متحرك ما بقى له من العمر.

ظل خوان محبطًا خلال أشهر بسبب الحادث، وبعد مرور سنة، بدا أنه قد بدأ فى التحسن شيئًا فشيئًا.

(*) سينبيرناس باللغة الإسبانية تعنى: "بلا سيقان". (المترجمة)

ومع ذلك، كان هناك شيء يعترض استعادة صحته النفسية، وفجأة عاد ليقع فى إحباط عميق لا يمكن فهمه.

اقترح الأطباء إرساله إلى طبيب نفسى، وبعد القليل من المقاومة، ذهب خوان سينبيرناس إلى الطبيب المختص.

كان الطبيب النفسى لطيفًا ومطمئنًا، وثق فيه خوان على الفور، وروى له بإيجاز الأحداث التى نجمت عنها حالته النفسية.

أخبره الطبيب النفسى أنه يتفهم شعوره بالإحباط؛ إن فقده ساقيه يعد بالفعل سببًا مبررًا لشعوره بالحزن.

قال خوان: ليس الأمر كذلك أيها الطبيب، إن الإحباط الذى لدى ليس له علاقة بفقدانى لساقىَّ. فليست الإعاقة هى أكثر شيئًا يضايقنى، إن أكثر ما يؤلمنى هو التغير الذى حدث فى العلاقة بينى وبين أصدقائى.

اتسعت عينا الطبيب النفسى وظل ناظرًا إليه، منتظرًا أن يكمل خوان سينبيرناس توضيحه للأمر:

قبل وقوع الحادث كان أصدقائى يأتون إلىَّ كل يوم جمعة كى نخرج لنرقص، كنا نجتمع مرة أو مرتين أسبوعيًا لنسبح فى النهر

ولنقيم سباقات السباحة، وحتى قبل إجراء العملية بأيام قليلة، كنا نخرج باكرًا أنا وبعض الأصدقاء يوم الأحد للركض على شاطئ البحر، ومع ذلك، يبدو أنه بسبب هذا الحادث الذى ألم بى لم أفقد ساقىَّ فقط؛ بل علاوة على ذلك فقد أصدقائى الرغبة فى مشاركتى تلك الأشياء، فلم يعد أى منهم يدعونى منذ ذلك الحين.

نظر إليه الطبيب وابتسم .

كان يصعب عليه تخيل أن خوان سينبيرناس لم يدرك كم يبدو طرحه للموضوع غير معقول.

ومع ذلك، قرر الطبيب أن يشرح له بوضوح حقيقة ما يحدث، كان يعرف أفضل من أى شخص آخر أن العقل لديه وسائل خاصة جدًا؛ التى من الممكن أن تجعل أى شخص غير قادر على فهم ما هو ظاهر وواضح.

شرح الطبيب لخوان سينبيرناس أن أصدقاءه لم يتجنبوه بسبب كرههم أو رفضهم له، وعلى الرغم من كون الأمر مؤلمًا، فإن الحادث قام بتغيير الواقع، شاء أم أبى، فهو لم يعد خوان الزميل المثالى الذى يستطيع أن يفعل الأشياء التى كان أصدقاؤه يشاركونه فيها من قبل.

قاطعه خوان سينبيرناس: ولكن، أيها الطبيب، أنا أعلم أننى أستطيع السباحة والجرى وحتى الرقص، ولحسن الحظ، تعلمت كيفية استعمال الكرسى المتحرك ولن يمنعنى شىء من هذا القبيل.

قام الطبيب بتهدئته واستمر فى إبداء أسبابه، بالطبع ليس هناك شيء يمنعه من القيام بعمل الأشياء نفسها، بل والأكثر من ذلك، من المهم أن يستمر فى عملها، كل ما هناك ببساطة أنه من الصعب الاستمرار فى زعمه مشاركة تلك الأشياء مع شبكة علاقاته السابقة.

شرح الطبيب النفسى لخوان أنه حقًا بإمكانه السباحة؛ ولكنه يجب أن ينافس الأشخاص الذين لديهم الإعاقة نفسها، فمن الممكن أن يذهب للرقص ولكن فى نوادى ومع أشخاص يعانون أيضًا من فقد ساقيهم، ومن الممكن أن يخرج كى يتمرن على شاطئ البحر، ولكن عليه أن يتعلم كيف يفعل ذلك مع أشخاص آخرين معاقين.

يجب على خوان أن يفهم أن أصدقاءه لن يكونوا معه كما كانوا من قبل، لأن الظروف التى بينه وبينهم أصبحت الآن مختلفة... فلم يعودوا متساويين.

ولكى يقوم بالأشياء التى يرغبها وأشياء أخرى أكثر، من الأفضل أن يتعود على فعلها مع من هم مثله، يجب عليه حينئذ تكريس طاقته لصنع **علاقات جديدة مع أشخاص مثله.**

شعر خوان أن حجابًا قد أزيح عن عقله، وهدَّأ هذا من روعه.

قال خوان: إنه لمن الصعب أن أشرح لك كم أقدر مساعدتك لى أيها الطبيب، لقد جئت إليك تقريبًا مرغمًا من قِبَل زملائى، ولكنى الآن أدركت أنه كان لديهم كل الحق، لقد فهمت رسالتك وأؤكد لك أننى سآخذ بنصائحك أيها الطبيب، أشكرك بشدة، كان مفيداً بالفعل المجيء لأخذ مشورتك.

«**علاقات جديدة مع من هم مثلى**». أخذ خوان يكرر هذه العبارة، كى لا ينساها.

خرج خوان سينبيرناس من عيادة الطبيب النفسى وعاد إلى المنزل...

وقام بتجهيز منشاره الكهربائى...

كان يخطط لقطع سيقان أصدقائه كافة، وهكذا يقوم «بصنع» أشخاص مثله!

الإدراك

هذه الحكـــاية مستوحاة مـــن قصيدة لراهب من التبت يدعى ريمبوشى، وقد أعدت كتابتها بطريقتى الخاصة لإظهـــار صفة أخـــرى مـــن صـــفاتنا نحن البشـــر.

أستيقظ فى الصباح

أخرج من منزلى

أجد حفرة فى رصيف الشارع

لا أراها وأقع فيها.

وفى اليوم التالى

أخرج من منزلى

أنسى أنه توجد حفرة فى رصيف الشارع

وأقع فيها مرة أخرى.

وفى اليوم الثالث

أخرج من منزلى محاولاً تذكُر

أن هناك حفرة فى الرصيف

ومع ذلك

لا أتذكر

وأقع فيها.

وفى اليوم الرابع

أخرج من منزلى محاولاً تذكُر

أن هناك حفرة فى الرصيف

وأتذكر وجود الحفرة

وعلى الرغم من ذلك

لا أرى الحفرة وأقع فيها.

وفى اليوم الخامس

أخرج من منزلى

أتذكر أنه يجب ألاَّ يغيب عن بالى

وجود الحفرة فى الرصيف

وأسير ناظرًا إلى الأرض

و أرى الحفرة

وعلى الرغم من ذلك

أقع فيها.

وفى اليوم السادس

أخرج من المنزل

أتذكر وجود الحفرة فى الرصيف

أسير باحثًا عنها بعينىَّ

أراها

أحاول أن أقفز من فوقها
ولكنى أقع فيها.

وفى اليوم السابع
أخرج من منزلى
أرى الحفرة
أمضى قُدُمًا
أقفز
أكاد ألمس بأخمص قدمى حافة الجانب الآخر
ولكن ليس بما يكفى وأقع فيها.

وفى اليوم الثامن
أخرج من المنزل
أرى الحفرة

أمضى قُدُمًا

أقفز

أصل إلى الجانب الآخر!

أشعر بالفخر بأننى حققت ذلك

أحتفل بذلك وأنا أقفز من السعادة...

وبينما أنا أفعل ذلك

أقع فى الحفرة مرة أخرى.

وفى اليوم التاسع

أخرج من منزلى

أرى الحفرة

أمضى قُدُمًا

أقفزمن فوقها

وأتابع السير فى طريقى

وفى اليوم العاشر

تحديدًا اليوم

أدرك أن...

السير على الرصيف المقابل

أكثر راحة!

حكاية داخل الحكاية

كان يعيش منذ شهور يملؤه الرعب من هواجس تتبئ بوفاته... بالأخص عندما يحل الليل، وكان يأوى إلى فراشه متوجسًا ألاَّ يرى فجر اليوم التالي، ولم يكن يستطيع النوم حتى بزوغ الشمس، وربما بالكاد استطاع النوم لساعة قبل أن يحين ميعاد الاستيقاظ للذهاب إلى عمله، وعندما علِم أن أحد العلماء سوف يقضى الليلة فى ضواحى القرية، أدرك أن فى يديه فرصة لا مثيل لها؛ حيث إنه لم يكن شائعًا أن يقوم المسافرون بالمرور ولا حتى بالاقتراب من هذه القرية المفقودة بين جبال منطقة كلديا(*).

كانت شهرة هذا الزائر الغامض قد سبقته، وعلى الرغم من أن أحداً لم يره من قبل، فقد كان يقال إن هذا العالم لديه إجابات عن التساؤلات كافة. ولهذا عند بزوغ الفجر، دون أن يشعر أى شخص بالبيت، ذهب الرجل لرؤيته فى الخيمة التى- كما أخبروه- قد قام بنصبها بالقرب من النهر.

وعندما وصل كانت الشمس قد انفصلت لتوها عن الأفق، ووجد العالِم يعيش لحظة تأمل.

فانتظر باحترام لبضع دقائق حتى استشعر العالِم وجوده...

(*) المنطقة الممتدة من جنوب بغداد إلى الخليج ومن الفرات حتى نهر الكارون .(المترجمة)

وفى تلك اللحظة، وكأنه كان فى انتظاره، توجه نحوه وبتعبير هادئ نظر فى عينيه فى صمت، وقال:

- معلمى ساعدنى تهاجمنى أفكار رهيبة ليلاً، وأفتقد السلام والرغبة فى الاستراحة والتمتع بالأشياء التى أعيشها. يقولون إنك تستطيع حل كل شىء، فساعدنى على الهرب من هذا القلق...

ابتسم العالِم ثم أجابه:

- سأقص عليك حكاية.

ذات يوم أرسل رجل غنى خادمه إلى السوق لإحضار الطعام، ولكن بعد وقت قصير من وصوله إلى هناك، تقابل مع الموت، الذى نظر إليه مباشرة فى عينيه.

عندها صار لون الخادم شاحبًا من الخوف، وانطلق راكضًا تاركًا وراءه المشتريات والبغلة التى كان يمتطيها، ووصل إلى منزل سيده وهو يلهث.

- سيدى، سيدى! أرجوك، أحتاج جوادًا وبعض المال لأذهب فى الحال إلى المدينة... فإذا خرجت الآن ربما أصل إلى مدينة "تامور" قبل حلول المساء... أرجوك، سيدى، أرجوك!

سأله سيده عن سبب هذا الطلب العاجل، فقصَّ عليه الخادم بصعوبة ما حدث له وما كان من لقائه مع الموت.

فكَّر سيده للحظة ثم أعطاه صرة مليئة بالعملات قائلاً له:

- حسنًا، وهو كذلك، اذهب، ولتأخذ الجواد الأسود فهو أسرع جواد لدىَّ.

- أشكرك يا سيدى.

وبعد أن قام بتقبيل يديه، ركض إلى الإسطبل وامتطى الجواد وغادر مسرعًا متجهًا إلى مدينة "تامور".

وعندما غاب الخادم عن الأنظار، سار الرجل الغنى نحو السوق باحثًا عن الموت.

وبمجرد أن رأى الرجل الموت سأله: لماذا قمت بإخافة خادمى؟

سأل الموت: أنا أخفته؟.

نعم، لقد أخبرنى أنه تصادف معك اليوم، وأنك نظرت إليه نظرة مليئة بالتهديد.

قال الموت: لم أنظر إليه نظرة تهديد، لقد نظرت إليه متفاجئًا، فلم أكن أتوقع أن أراه هنا هذا المساء، فمن المفترض أنه يتوجب علىَّ قبضه من "تامور" هذه الليلة!

سأل العالم: هل فهمت؟.

- بالطبع فهمت، يا معلمى، إن محاولة الهروب من الأفكار السيئة هو الخروج للبحث عنها، فالهروب من الموت هو الذهاب لملاقاته.

- هو كذلك.

- لا أعرف كيف أشكرك معلمى، أشعر أننى منذ هذه الليلة سوف أحظى بنوم هادئ متذكرًا هذه الحكاية التى ستجعلنى أستيقظ بهدوء كل صباح...

قاطعه العالم العجوز: منذ هذه الليلة... لن يكون هناك صباح جديد.

- لا أفهم.

- إذن، فأنت لم تفهم الحكاية.

نظر الرجل بدهشة إلى العالم.

ولاحظ أن التعبير الذى كان يعلو وجهه...

قد تغير...

الجشع

عندما كنت أقوم بالحفر لإقامة سياج يفصل أرضى عن الأراضى التابعة لجيرانى، وجدت صندوقًا مدفونًا فى الحديقة، مملوءًا بالعملات الذهبية.

بالنسبة إلىَّ فإن الثروة لم تُثر اهتمامى؛ بل غرابة الاكتشاف.

فلم أكن طموحًا، ولم أكن أهتم كثيرًا بالمنافع المادية.

وبعد إخراج الصندوق من الأرض، أخرجت العملات وقمت بتلميعها، كم كانت المساكين غاية فى الاتساخ، ويعلوها الصدأ!

وبينما أنا أضعها على المنضدة بنظام، كنت أقوم بِعَدِّها...

كانت تمثل ثروة حقيقية.

وبمرور الوقت، بدأت أتخيل الأشياء التى يمكن شراؤها بتلك العملات...

فكرت كيف سيشعر بالسعادة أى طامع يعثر على مثل ذلك الكنز.

ولحسن الحظ لم أكن ذلك الطامع...

فقد جاء اليوم رجل يطالبنى بالعملات.

كان جارى الذى حاول أن يثبت - هذا الشخص غاية فى الحقارة - أن جَدَّه قد دفن هذه العملات ولهذا فإنها ملكه.

لقد أزعجنى كثيرًا

... لدرجة أننى قتلته!

لو لم أره متلهفًا ليحصل عليها

لكنت أعطيته إياها

لأنه إذا كان هناك ما لا أُعره اهتمامًا

فهى الأشياء التى تُشْتَرى بالمال.

ولكنى

لا أتحمل الأشخاص الجشعين.

الـــدب

هناك حكايات ذات مغزى خاص بالنسبة إلىَّ.

واحدة منها هذه القصة القديمة التى رواها لى جدى ذات مرة، وأريد أن أحكيها لك كما أتذكرها اليوم.

هذه حكاية تدور حول خياط وقيصر روسيا والدب الخاص به.

ذات يوم، اكتشف القيصر أن أحد أزرار سترته المفضلة قد فُقِد، وكان القيصر يتسم بأنه متقلب الأطوار ومتسلط وقاسٍ (ككل من يقبضون بمقاليد الحكم). وقد شعر بغضب شديد لفقدان الزر، ولهذا، أرسل فى البحث عن الخياط وأمر السياف بقطع رأسه فى صباح اليوم التالى.

لم يكن أحدٌ يستطيع أن يخالف أمرًا لإمبراطور روسيا بأكملها، ولهذا ذهب الحُرَّاس إلى منزل الخياط، وأخذوه من أحضان أسرته، وحملوه إلى سجن القصر المظلم، كى يبقى هناك انتظارًا لموته.

وعند حلول المساء، عندما أحضر السجان للخياط العشاء الأخير، هز الخياط رأسه متمتمًا: «يا لقيصر روسيا المسكين!»

لم يستطع الحارس أن يتمالك نفسه من الضحك.

– قيصر روسيا مسكين؟ بل أنت المسكين، غدًا سينفصل رأسك عن جسدك.

قال الخياط: أنت لا تفهم شيئًا. ثم سأله: ماهو أهم شيء بالنسبة إلى قيصرنا ؟

أجاب الحارس: أهم شيء؟ لا أعرف، نعم، شعبه.

– لا تكن مغفلاً، أقصد شيئًا يكون بالفعل مهمًا بالنسبة إليه.

– زوجته؟

– لا، أكثر أهمية!

قال السجان معتقدًا ذلك: الألماس!.

– ما هو أهم شيء في العالم بالنسبة إلى قيصر؟

– حسناً، لقد عرفت! دبه!

– نعم، هو كذلك دبه.

– ماذا تريد أن تقول؟

– غدًا، عندما يقضي السيَّاف عليَّ، سيفقد القيصر فرصته الوحيدة في أن يجعل دبه يتكلم.

- هل أنت مُدرِّب دببة؟

- إن هذا كان سرًا عائليًا قديمًا، يالقيصر روسيا المسكين!

راغبًا فى أن يحوذ على إحسان القيصر، ركض الحارس المسكين ليقصَّ على الملك اكتشافه.

- الخياط يعرف كيف يدرب الدببة على التحدث!

سُر القيصر لذلك سرورًا عظيمًا، وأرسل لإحضار الخياط فورًا، وعندما مَثُل أمامه أمره:

عليك أن تُعلِّم الدب الخاص بى لغتنا!

أحنى الخياط رأسه.

- إن إرضاءك لمن دواعى سرورى يا صاحب الجلالة، ولكن تعليم الدب التحدث مهمة شاقة وتستلزم وقتًا... وللأسف ليس لدىَّ متسع من الوقت الآن.

سأله القيصر: كم تستمر مدة التعليم؟

- هذا يعتمد على ذكاء الدب...

قاطعه القيصر: إن الدب ذكى جدًا، فى الحقيقة هو أذكى دب فى روسيا.

- حسنًا، إذا كان الدب ذكيًا، ولديه الرغبة فى التعلم، أعتقد أن مدة التعليم ستستغرق، ستستغرق ليس أقل من سنتين!

أخذ القيصر يفكر للحظة ثم قال:

حسنًا، سيتم تعليق العقوبة الموقعة عليك لمدة سنتين بينما تقوم بتدريب الدب، وستبدأ من الغد!

قال الخياط: يا صاحب الجلالة، إذا أرسلتنى إلى السياف ليقطع رأسى، غدًا سأكون فى عداد الأموات وستبذل عائلتى قصارى جهدها لتبقى على قيد الحياة، وإذا استبدلت العقوبة بعقوبة أخرى لن يكون لدىَّ وقت كى أُكرِّسه لتدريب دبك، سيتوجب علىَّ العمل خياطًا لإعالة أسرتى.

-هذه ليست مشكلة، من اليوم ولمدة سنتين ستكون أنت وعائلتك تحت الرعاية الملكية، ستحصلون على الطعام والكساء والتعليم من مال القيصر، ولن تُرد لكم رغبة أو حاجة، ولكن إذا لم يتحدث الدب خلال سنتين سوف تندم على التفكير فى هذا العرض، وستتمنى أن يكون السياف قد قام بقتلك.

- هل تفهم؟

- نعم، ياصاحب السمو.

صرخ القيصر مناديًا: حسنًا، أيها الحُرَّاس! احملوا الخياط إلى منزله فى العربة الخاصة بالبلاط الملكى، واعطوه صُرتين من الذهب وطعامًا وهدايا لأطفاله، هيا! انصرفوا!

بدأ الخياط بالانسحاب مقدِّمًا تحية انحناء للقيصر، وهو يسير إلى الخلف بينما يتمتم بكلمات شكر وتقدير للقيصر.

قال له القيصر مشيرًا بإصبعه نحو الجبهة: لا تنَس، إذا لم يتحدث الدب خلال سنتين...

بينما كان الجميع فى حالة بكاء بسبب فقدان رَبِّ الأسرة، جاء الخياط إلى المنزل داخل عربة القيصر مبتسمًا سعيدًا وحاملاً هدايا للجميع.

لم تتمالك زوجة الخياط نفسها من الدهشة؛ فزوجها الذى حملوه منذ ساعات قليلة إلى منصة الإعدام، عاد الآن ناجحًا وغنيًا وسعيدًا.

وعندما انفرد كل منهما بالآخر، قصَّ عليها زوجها ما حدث.

صرخت المرأة: هل جننت يا رجل!؟ هـل تريـد تعلـيم دب القيصر الحديث!؟ أنت الذى لم تر من قبل دبًا عن قرب، هـل أنـت مجنون؟ تعليم دب الحديث، مجنون، أنت مجنون.

- اهدئى يا امرأة، اهدئى، انظرى، كانوا سيقطعون رأسى غدًا صباحًا، والآن أمامى سنتان، وفى خلال سنتين من الممكن أن يحدث الكثير من الأشياء...

خلال سنتين من المحتمل أن يتوفى القيصر... ومن المحتمل أن أتوفى أنا... وأهم شىء يمكن أن يحدث هو أنه ربما يتحدث الدب!

فقط من أجل الحب

كنت أسير فى طريقى.

لم يكن فى طريقى سوى درب واحد الذى أسير فيه.

على يسارى كان يوجد سور لا ينتهى، يفصل طريقى عن طريق أحد الأشخاص الذى كان يمر بالقرب منى على الجانب الآخر من السور.

وكان يظهر فى هذا السور من حين إلى آخر ثقب أو نافذة أو شق، ومن هنا كنت أستطيع أن أنظر إلى طريق جارى أو جارتى.

وفى يوم من الأيام، بينما كنت أمشي، ظننت أننى أرى على الجانب الآخر من السور وجهًا يتحرك معى فى الاتجاه نفسه.

رأيت ذاك الوجه: إنها امرأة جميلة.

هى أيضا تنظر إلىَّ وترانى.

وأنا أعاود النظر إليها.

أبتسم لها، وتبتسم لى.

وبعد دقيقة، بينما كانت هى تتابع السير فى طريقها، كنت أنا أُسْرِع فى السير؛ لأننى كنت أنتظر بلهفة فرصة أخرى أصادف فيها تلك المرأة.

سأتوقف عند النافذة القادمة لدقيقة.

وعندما تصل هى، سوف نرى بعضنا بعضنا عبر النافذة.

قلت لها ببعض الإشارات إنها تعجبنى.

فأجابتنى هى الأخرى بإشارات، لا أعرف ما إذا كانت تلك الإشارات تحمل معنى الإشارات نفسها التى أقوم بها، ولكن كان لدى شعور بأنها تفهم ما أريد أن أقوله لها.

أشعر بالأسى لعدم بقائى وقتًا طويلاً حتى أراها وأنظر إليها، ولكننى أعلم أن طريقى لم ينته بعد وأنه مازال مستمرًا.

أقول لنفسى إنه بالتأكيد فيما بعد سأجد فى الطريق بابًا، وربما أستطيع العبور حتى ألتقى بها.

لا يوجد شىء يُشعرنا باليقين غير الرغبة فيما نريد، ولهذا فأنا أتعجل فى إيجاد ذلك الباب الذى أتخيله.

بدأت أجرى وأنا أحدق النظر فى السور.

فى الأمام قليلاً ظهر الباب.

والآن معشوقتى ورفيقتى الحبيبة على الجانب الآخر تنتظر، تنتظرنى.

أُشير إليها فترد عليَّ بقُبلة فى الهواء.

تشير إلىَّ وكأنها تنادينى وهذا كل ما أحتاجه، وقفتُ أمام الباب يملأنى الأمل فى أن أنضم إليها فى الجانب الآخر من السور.

ولكن الباب ضيق جدًا، أدخلت يدى ثم كتفى، ضغطتُ بطنى قليلاً، التويت قليلاً على نفسى، تقريبًا استطعت إدخال رأسى، ولكن أذنى اليمنى ظلت عالقة.

حاولت أن أدفعها.

ولكن دون جدوى، لاتوجد طريقة، لا أستطيع إدخال أُذُنى.

ولا أستطيع استخدام يدى كى أثنى أُذُنى، لأننى لا أستطيع أن أضع إصبعًا واحدًا هناك...

لا يوجد مكان كافٍ كى أُدخل أُذُنى، ولهذا فقد اتخذت هذا القرار؛ لأن حبيبتى هناك، وتنتظرنى؛ لأنها المرأة التى طالما حلمت بها، وها هى تنادينى.

أخرجت سكينًا من جيبى، وبضربة واحدة سريعة تشجعت على قطع أذنى حتى تمر رأسى من الباب.

ونجحت بالفعل فى إدخال رأسى.

ولكن بعد أن أدخلت رأسى وجدت أن كتفى لا يزال عالقًا.

فالباب لا يأخذ شكل جسدى.

بذلت جهدًا كبيرًا، ولكن ما من حل، لقد أدخلت يدى وجسدى ولكن كتفى وذراعى الآخرين ظلا عالقين.

الآن لا يهمنى أى شىء، ولهذا

التويت على نفسى، ودون تفكير فى العواقب اندفعت بقوة ومررت من الباب.

ولكن عندما فعلت ذلك، كانت الضربة قد خلعت كتفى بينما ظل ذراعى عالقًا دون حياة، ولكنى الآن لحسن الحظ فى وضع يُمَكِّننى من الدخول من الباب.

أصبحت تقريبًا فى الجانب الآخر من الباب.

وبالضبط عندما كنت على وشك أن أنتهى من العبور من هذا الشق، أدركت أن قدمى اليمنى لا تزال عالقة فى الجانب الآخر.

وعلى الرغم من كل ذلك الجهد الذى بذلته وأبذله، لم أستطع أن أدخل.

ليس هناك حيلة، فالباب ضيق جدًا، لدرجة لا تسمح بمرور جسدى كاملاً من خلاله. إنه من الضيق بحيث لا يتسع لقدميَّ الاثنتين.

أنا الآن على وشك الوصول لحبيبتى، لا أشك فى ذلك.

لا أستطيع التراجع، ولهذا فقد أخذت الفـــأس وكـــززت علـــى أسنانى، وأعطيت نفسى ضربة فصلت بها قدمى.

وهكذا، ملطخًا بالدماء، أخذت أقفز متكئًا على الفـــأس؛ وأنـــا بذراع مخلوع وأذن وقدم واحدة، التقيت بمحبوبتى، وقلت لها:

ها أنا ذا، أخيراً قد عبرت، نظرتِ إلىَّ ونظرتُ إليك فأحببتك، وقد دفعت ثمنًا غاليًا من أجلك، كل شىء يمكن التضحية به فى الحرب وفى الحب، لا تهم التضحيات، فهذه التضحيات تستحق كل ذلك العناء إذا كان المقابل أن ألتقى بك، كى نستطيع أن نكمل العمر معًا إلى الأبد.

حينئذ نظرت إلىَّ، وقد علت وجهها تجهُّم، قائلة:

هكذا لا، لا أريدك هكذا، لقد أعجبتنى عندما كنتَ كاملاً.

طقوس احتساء الشاي

ألتقي بك...

أسمعــــك...

أكلمــــك...

أعانقــــك...

أقبلـــــك...

أحتـــــويك...

أضمـــــــك...

أمســـــــك بك...

أمتصــــــــك...

أخنقـــــــــك...

فهل أحبــــــــــك؟

العوائق

هذا النص الذى أعيد كتابته هنا ليس فى الحقيقة حكاية،

وإنما هو تأمل موجه، مصمم على هيئة حلم

لاكتشاف الأسباب الحقيقية لفشلنا فى بعض الأشياء.

وأود أن أقترح عليك أن تقرأه بتمعن، محاولاً

التوقف لحظة عند كل جملة، متخيلاً كل موقف.

بدأت السير فى طريق.

تركت ساقىَّ تحملنى أينما تشاء، أخذت عينى تتعلق بالأشجار والطيور والأحجار.

بدا فى الأفق أنى على مشارف مدينة ما.

أخذت أدقق النظر حتى أُميِّزها جيدًا.

انتابنى شعور خفٍ يجذبنى نحو تلك المدينة.

ودون أن أدرى كان يدور بداخلى اعتقاد قوى بأنه يمكننى أن أجد كل ما أتمناه فى هذه المدينة.

كل مرامى وكل أهدافى

كل طموحاتى وأحلامى تنتظرنى فى تلك المدينة.

ما أريد أن أحصل عليه، وما أحتاجه، وما أريد بالفعل أن أكون، وهذا الذى أطمح إليه، وما أحاول تحقيقه، وهذا الذى أعمل من أجله، والذى لطالما حلمت به، وهذا الذى سيصبح أهم نجاح فى حياتى.

تخيلت أن كل هذا ينتظرنى فى المدينة.

بلا أدنى شك، بدأت أسير نحوها.

بعد مسافة قصيرة أخذ الطريق فى الارتفاع شيئًا فشيئًا، وهو ما أرهقنى قليلاً ولكننى لم أكترث.

فقد صممت على متابعة السير.

وعلى مقربة منى لاحظت ظلاً أسود فى الطريق، وعند اقترابى رأيت حفرة عميقة تعوق مرورى، وشعرت بقلق وخوف كبيرين.

أغضبنى أننى لا أستطيع أن أصل إلى هدفى بسهولة

وقررت على أية حال أن أقفز فوق تلك الحفرة.

تراجعت إلى الخلف قليلاً وبكل قوة اندفعت للأمام وقفزت،

واستطعت القفز بنجاح.

استعدت نفسى من جديد ثم تابعت السير

فى الأمام وعلى بعد عدة أمتار ظهرت حفرة أخرى

مرة أخرى فعلت ما فعلته سابقًا، وقفزت بنجاح أيضًا.

ركضت نحو المدينة وبدا الطريق لى مكشوفًا

وعلى حين غرة، فوجئت بهوة سحيقة تعوق طريقى

توقفت

فمن المستحيل أن أجتازها

وبالنظر حولى لاحظت وجود أخشاب ومسامير وغيرها من الأدوات على جانب الطريق

وأدركت أن كل هذه الأدوات موجودة فى ذلك المكان لإنشاء جسر.

أخذت أفكر؛ فلم أكن قط طوال حياتى ممن تتوفر لديهم مهارة العمل اليدوى

لذا فكرت كثيرًا فى التراجع والانسحاب.

ولكنى تذكرت الهدف الذى أريد أن أصل إليه وقاومت

وبدأت بالفعل فى إنشاء الجسر.

مرَّت الساعات والأيام والشهور وأنجزته بالفعل،

وممتلئًا بالحماسة عبرته

وعند وصولى للحافة الأخرى اكتشفت وجود سور،

سور عملاق بارد ورطب يحيط بمدينة أحلامى

عندها شعرت بالانكسار.

وأخذت أفكر فى طريقة لتجنبه والهروب منه

ولكن دون جدوى.

لابد أن أتسلقه

فالمدينة قريبة جدًا

ولن أترك هذا السور يعوق تقدمى.

عقدت العزم على تسلقه

استرحت لبضع دقائق والتقطت أنفاسى.

ولكنى فجأة،

رأيت على أحد جانبى الطريق طفلاً ينظر إلىَّ وكأنه يعرفنى

فابتسمت له بلطف.

شعرت أنه يذكرنى بنفسى عندما كنت طفلا.

وشجعنى ذلك على أن أُعبِّر له عن شكوتىِ بصوت مرتفع:

لماذا كل هذه العراقيل التى تحول بينى وبين هدفى؟

ضم الطفل كتفيه وأجابنى:

لماذا تسألنى أنا هذا السؤال؟

كل تلك العراقيل لم تكن موجودة قبل أن تأتى أنت،

فأنت الذى أحضرتها معك.

كان ذات مرة

(أو فيما يتعلق بالحدود الواهية بين الحكاية والواقع)

كانت هناك ذات مرة "ذات مرة"

من كثرة ما كانت تُحكى

تكررت مرات عديدة

حتى أصبحت واقعًا.

الأطفال كانوا بمفردهم

كانت والدتهم قد غادرت المنزل فى الصباح المبكر، وتركتهم فى رعاية "مارينا"؛ وهى شابة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا؛ كانت تتعاقد معها أحيانًا لتتولى مسئولية الأطفال لبضع ساعات مقابل القليل من عملة البيزو.

منذ أن توفى والدهم، أصبحت الأيام غاية فى الصعوبة؛ بحيث لا تسمح لها بأن تغامر بترك العمل كل مرة تمرض فيها جدة الأطفال أو تغيب عن بالمدينة.

وذات مساء عندما اتصل خطيب مارينا لدعوتها للتنزه بسيارته الجديدة، لم تتردد الفتاة كثيرًا؛ فعلى على أية حال كان الأطفال نائمين كما يحدث كل مساء، ولن يستيقظوا حتى الساعة الخامسة.

عندما سمعت صوت نفير السيارة، أخذت حقيبتها وفصلت سلك الهاتف، وعلى سبيل الاحتياط قامت بإغلاق باب غرفة الأطفال، واحتفظت بالمفتاح فى جيبها، فلم تُرِد أن تغامر بأن يستيقظ "بانشو" وأن ينزل على السلالم ليبحث عنها؛ فهو لم يبلغ من العمر سوى ست سنوات، ومن الممكن فى غفلة منه أن يتعثر فى أى شىء ويؤذى نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، فقد فكرت أنه إذا حدث ذلك فكيف ستفسر لوالدته أن الطفل لم يجدها؟

واشتعلت النيران بالفعل؛ ربما كـان بـسبب انقطـاع التيـار الكهربى فى جهاز التلفزيون الذى كان يعمل، أو فى أى من أضـواء الصالة، أو ربما بسبب شرارة تصاعدت النيران من موقد الحطـب، وعندما بدأت الستائر فى الاشتعال وصلت النار سريعًا إلـى الـسلم الخشبى الذى كان يقود إلى غرف النوم.

وقد أدى سعال الرضيع بسبب الدخان المتسرب من تحت الباب إلى إيقاظ "بانشو"؛ الذى قفز دون تفكير من فراشه وحاول جاهدًا، وهو ممسك بمقبض الباب أن يفتحه ولكنه لم يستطع.

وعلى أية حال، لو استطاع أن يفعل ذلك لكانت التهمته ألسنة اللهب هو وأخاه الصغير ذا البضعة أشهر فى دقائق معدودة.

صرخ "بانشو" وهو ينادى على "مارينا"؛ ولكن أحدًا لم يجب استغاثته؛ ولهذا ركض نحو الهاتف الذى كان بالغرفة - كان يعلم كيف يقوم بالاتصال برقم هاتف والدته- ولكن لم تكن هناك حرارة بالهاتف.

أدرك "بانشو" أنه يتوجب عليه أن يُخرِج أخاه الصغير من هناك، فحاول فتح النافذة التى كانت تطل على إفريز بالجدار، ولكن

كان مستحيلاً على يديه الصغيرتين أن تقوما بفك القضيب المعدنى الذى يغلق باب النافذة؛ وحتى إذا استطاع فعل ذلك لوجب عليه أن يقفز من فوق شبكة الأسلاك التى كان والداه قد قاما بتركيبها للحماية.

عندما انتهى رجال الإطفاء من إخماد الحريق، كان الجميع يتحدثون حول الموضوع نفسه:

* كيف استطاع هذا الطفل الصغير كسر الزجاج، ثم قطع شبكة الأسلاك باستخدام بعض المشاجب؟

* كيف استطاع حمل أخيه الرضيع فى حقيبة الظهر؟

* كيف استطاع السير على إفريز الجدار حاملاً مثل هذا الوزن والهبوط به من أعلى الشجرة؟

* كيف استطاع إنقاذ حياته وحياة أخيه؟

أجابهم قائد رجال الإطفاء، وهو رجل حكيم وجدير بالاحترام قائلاً:

– كان "بانشو" وحده عندما حدث ما حدث... ولم يكن هناك شخص ليخبره بأنه لن يستطيع القيام بذلك.

إيجـــــاز

لقد وُلِدتُ فجر اليوم

وعشت طفولتى فى الصباح

وبعد الظهيرة

اجتزت مرحلة المراهقة

وليس الأمر أننى يفزعنى

أن يجرى الزمن بى سريعًا

فقط يزعجنى قليلاً التفكير فى

أن غدًا ربما

أصير

عجوزًا إلى الحد الذى يجعلنى

لا أستطيع إنجازما تركته معلقًا.

مدينة الآبار

تعد هذه القصة بالنسبة إلىَّ رمزًا للوثاق الذى يربط بين الناس من خلال الحكمة التى تستخلص من الحكايات، وقد حكاها لى مريض كان قد سمعها بدوره على لسان شيخ رائع وهو الراهب (ماميرتوميناباشى)(*) أحد أبناء الأوروبيين المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية.

وقد أهديتها ذات ليلة إلى مارثى و باولا كما أرويها الآن.

لم يكن يسكن تلك المدينة أشخاص كباقى مدن الأرض.

تلك المدينة كانت تسكنها الآبار، آبار حية ولكنها فى النهاية آبار.

وكانت الآبار تختلف بعضها عن بعض، ليس فقط من حيث المكان الذى حُفِرَت فيه، ولكن أيضًا من حيث فوهات هذه الآبار (وهى الفتحات التى كانت تصلهم بالخارج).

كانت هناك آبار غنية وفخمة، حافتها مصنوعة من رخام ومعادن نفيسة، وآبار متواضعة حافتها مصنوعة من الطوب

(*) راهب وكاتب أرجنتينى، كتب العديد من القصص والقصائد والخواطر والمقالات الدينية الخاصة بالكتاب المقدس. (المترجمة)

والخشب، وآبار أخرى أكثر فقرًا، ليست إلا حُفـــرًا بـــسيطة عاريـــة امتدت فى الأرض.

كان سكان هذه المدينة يتواصلون عبـــر الفوهـــات، وكانـــت الأخبار سريعًا ما تتنقل فيما بينهم.

وذات يوم وصلت إلى المدينة فكرة جديدة، والتى من المؤكد أنها قد بزغت فى إحدى القرى الصغيرة التى كان يقطنها البشر.

كانت الفكرة الجديدة تشير إلى أن كل كائن حى يفتخر بنفسه، يجب أن يعتنى بالداخل أكثر من الخارج، فالظاهر ليس الأهم بل المضمون.

وهكذا بدأت الآبار تملأ أنفسها بكثير من الأشياء.

بعضها امتلأ بمجوهرات وعملات ذهبيـــة وأحجـــار نفيـــسة، والبعض الآخر كان عمليًا أكثر، فامتلأ بـــأجهزة منزليـــة وأخـــرى ميكانيكية، وآبار أخرى اختارت الفن فـــامتلأت بالرســـومات وآلات البيانو الغراند(*)، ومنحوتات مغشوشة تنتمى إلى تيار ما بعد الحداثة،

(*) نوع من آلات البيانو، ويطلق عليه أيضا البيانو الكبير. (المترجمة)

وأخيرًا امتلأت الآبار المثقفة بالكتب والبيانات الأيديولوجية والمجلات المتخصصة.

ومضى الوقت.

امتلأت غالبية الآبار إلى الحد الذى لا يمكنهم إدخال أى شىء آخر.

لم تكن كل الآبار سواء، ولهذا، إذا كان بعضهم اكتفى بما يملك، فالبعض الآخر كان يفكر فيما يجب فعله حتى يستمر فى إدخال أشياء بداخله...

أخذ أحدهم زمام المبادرة، وبدلاً من الضغط على ما يحتويه، خطر بباله زيادة قدرته عن طريق الاتساع.

ولم يمض الكثير من الوقت حتى أخذ الجميع فى تقليد الفكرة. استخدمت الآبار كافة جزءًا كبيرًا من طاقتها لتقوم بالاتساع كى يكون هناك فراغ أكبر بداخلها.

بدأ بئر صغير وبعيد عن وسط المدينة فى تأمل زملائه الذين قاموا بالاتساع بصورة بالغة، واهتدى إلى أنه إذا استمر فى الاتساع بهذه الطريقة ستختلط حواف الآبار المختلفة، وسيفقد كلٌ منهم هويته.

وربما آخذًا فى الاعتبار هذه الفكرة خطر بباله طريقة أخرى لزيادة سعته، وهى أن يتسع، ولكن ليس من حيث العرض، وإنما من حيث العمق، أى أن يكون أكثر عمقًا بدلاً من أن يكون أكثر اتساعًا. وسريعًا ما أدرك أن كل ما بداخله يحول دون قيامه بالتعمق، فإذا كان يريد أن يكون أكثر عمقًا فيجب عليه أن يفرغ محتوياته كافة.

فى بادئ الأمر كان الخوف يتملكه من أن يصبح فارغًا، ولكن بعد ذلك، عندما رأى أنه لا يوجد حل آخر، فقام بفعل ذلك.

بعدما قام بإفراغ محتوياته، بدأ البئر فى التعمق، بينما قام الآخرون بالاستيلاء على الأشياء التى قام بالتخلص منها.

وذات يوم، فوجئ البئر الذى كان يتسع داخليًا بشىء، فبداخله وفى أعماقه وجد ماء!

لم يسبق أن وجد أى بئر آخر ماءً بداخله.

تجاوز البئر هذه المفاجأة، وبدأ فى اللعب بالماء الذى وجده فى أعماقه، وقام بترطيب جدرانه ورش حوافه بالماء، وأخيرًا قام بقذف الماء خارجه.

لم يسبق أن رويت المدينة إلا بماء المطر الذى كان قليلاً بالفعل، ولهذا فإن الأرض التى كانت تحيط بالبئر أحياها الماء وبدأت فى الاستيقاظ.

نبتت البذور التى كانت فى أحشائها، وأصبحت حشائش ونباتات نفل وأزهارًا وجذوع أشجار صغيرة وضعيفة، سرعان ما تحولت إلى أشجار باسقة بعد ذلك.

تفجرت الحياة بألوان مختلفة حول البئر البعيد، الذى بدأوا يطلقون عليه اسم "البستان".

وأخذ الجميع يسألونه كيف استطاع تحقيق هذه المعجزة.

أجاب "البستان": ليست معجزة، عليكم فقط البحث عمًا فى الداخل، عمًا فى الأعماق.

أراد الكثيرون اتباع النموذج الذى ضربه "البستان"، ولكنهم استبعدوا الفكرة عندما أدركوا أنهم كى يصبحوا أكثر عمقًا لابد أن يقوموا بإفراغ ما بداخلهم، فاستمروا فى الاتساع على نحو متزايد لكى يملأوا أنفسهم بأشياء أكثر وأكثر.

فى الجانب الآخر من المدينة، قرر بئر آخر أن يجازف بإفراغ نفسه، فبدأ فى التعمق أيضًا.

ووصل إلى الماء أيضًا، وقام بقذف الماء خارجه صانعًا واحة خضراء ثانية فى القرية.

فسألوا: ماذا ستفعل عندما ينتهى الماء؟

أجاب: لا أعلم ماذا سيحدث، ولكن حاليًا، كلما أخرجت ماء، كلما زاد الماء الموجود.

ومرت بضعة أشهر، وقبل أن يتم الوصول إلى اكتشاف كبير.

ذات يوم بطريق الصدفة، أدرك البئران أن الماء الذى وجداه فى أعماقهما كان الماء نفسه.

فالنهر الجوفى نفسه الذى كان يمر بأحدهما يفيض بالماء فى عمق البئر الآخر.

أدركا أن ذلك يفتح أمامهما حياة جديدة.

فلم يعد بإمكان كل منهما الاتصال بالآخر سطحيًا فقط عن طريق فتحة الآبار كما يفعل الآخرون، وإنما أصبح فى مقدورهما أيضًا البحث عن نقطة اتصال جديدة وسرية.

فقد اكتشفا الاتصال العميق الذى يربط فقط بين هؤلاء الذين لديهم الشجاعة للاستغناء عمًا بداخلهم، والبحث فى أعماقهم عمًا هو لديهم لإعطائه للآخرين.

منطق رجل ثمل

ذات يوم جاء رجل إلى إحدى الحانات، جلس على المنضدة، وطلب خمسة كئوس من الويسكى.

فسأله النادل: دفعة واحدة؟

أجابه الزبون: نعم خمسة كئوس، ودون ثلج.

أعدَّ النادل الكئوس، وقام الزبون بشربها جرعة واحدة.

قال الزبون: أيها النادل الآن أعِدَّ لـــى أربعـــة كئـــوس مـــن الويسكى، دون ثلج.

وبينما كان الرجل يقوم بإعداد الكئوس، بدت على وجه الزبون ابتسامة غبية، وبعد شُربه الكئوس الأربعة الواحد تلو الآخر، حاول الوقوف متشبثًا بالمنضدة وصاح قائلاً:

أيها الفتى، احضر لى ثلاثة كئوس أخرى من الويسكى! ضحك قليلاً ثم أردف قائلاً:

"دون ثلج".

أطاعه النادل، وسرعان ما شربها الزبون.

والآن لم تعُد فقط ابتسامة الزبون تبدو غبية، بل نظرته أيضًا تبدو كذلك.

قال الزبون بصوت عالٍ: صديقى! أحضر لى كأسين بالمثل.

رفع الكأسين بأطراف أنامله، وصرخ موجهًا كلامه مرة أخرى إلى النادل:

أخى! أنت الآن فى مقام أخى.

تعالى صوت ضحكاته ثم أضاف: "أحضر لى كأسًا آخر من الويسكى دون ثلج، كأسًا واحدًا فقط، مفهوم؟ واحدًا فقط ".

أحضر نادل الحانة الكأس إليه.

شرب الزبون الكأس الوحيد جرعة واحدة، وشعر بدوار لم يستطع مقاومته، فوقع على الأرض ثملاً.

ثم قال للنادل وهو مُلقى على الأرض:

إن طبيبى لا يريد أن يصدقنى، ولكنك الآن شاهد على ما حدث.

فكلما شربت أقل من المعتاد كان تأثير الشراب علىَّ أسوأ!

حكاية دون حرف "يو" U

كان يسير فى الطريق شارد الفكر وفجأة رآها.

مرآة يد ضخمة على جانب الطريق وكأنها فى انتظاره.

اقترب منها، والتقطها ونظر فيها.

كان يرى نفسه فيها جيدًا.

لم ير نفسه ذلك الشاب الصغير، ولكن كانت السنوات رفيقة به.

ومع ذلك كان هناك شىء يبعث على القلق فى محياه.

صلابة ما تبدو على ملامحه تذكره بالأوجه الأكثر قسوة لحياته الخاصة.

الغضب

الاحتقار

العدوان

الهجر

الوحدة

شعر بالرغبة فى حمل المرآة، ولكن سرعان ما تخلى عن الفكرة، هناك بالفعل الكثير من المنغصات فى الدنيا بالقدر الذى لا يسمح له بحمل آخر.

وقرر الذهاب ونسيان هذا الطريق وهذه المرآة الغريبة إلى الأبد.

سار لساعات محاولاً هزيمة رغبته فى العودة إلى المرآة، كان هذا الشيء الغامض يجذبه كما يجذب المغناطيس المعادن.

ولكنه قاوم وأسرع الخطى.

أخذ يدندن بأغانى الأطفال كى لا يعاود التفكير فى صورته الرهيبة.

ركض حتى وصل إلى المنزل الذى يعيش فيه منذ ولادته، نام فى الفراش بملابسه وغطى وجهه بالملاءات.

هو الآن لا يرى ما بالخارج، ولا يرى الطريق، ولا المرآة، ولا صورته المنعكسة فيها.

ولكنه لم يستطع انتزاع تلك الصورة من ذاكرته.

صورة الحقد

والألم

والوحدة

والكراهية

والخوف

والاحتقار.

كانت هناك بعض الأشياء التى لا يمكن وصفها والتى لا يمكن التفكير فيها.

ولكنه كان يعرف أين بدأ كل هذا...

بدأ ذلك المساء، منذ نحو ثلاثين عامًا أو يزيد.

كان الطفل يفترش الأرض يبكى أمام البحيرة متألمًا من سوء معاملة الآخرين له.

ذلك المساء قرر الطفل أن يمحو حرفًا من حروف الهجاء إلى الأبد.

ذلك الحرف.

ذلك الحرف الذى يلزم لتسمية الآخر إذا كان حاضرًا، ذلك الحرف الذى لا يمكن الاستغناء عنه للتحدث مع الآخرين عند توجيه الكلام إليهم.

فإذا لم تكن هناك طريقة لتمييز الآخرين سيصيرون غير مرغوب فيهم.

وعندها لن يكون هناك سببٌ للشعور بضرورتهم واحتياجنا لهم.

ولن يكون هناك سببٌ أو طريقة لاستدعائهم.

وهكذا شعر أخيرًا أنه حر.

خاتمة

وأنا أكتب دون حرف الهجاء "يو" ***u***

بإمكانى التحدث حتى عن تعبى

عمّا لدىَّ، عنى

عمَّا أملكه، عمَّا يخصنى...

حتى إننى بإمكانى الكتابة عنه

وعنهم

وعن الآخرين.

ولكن دون الحرف "يو" ***u***

ليس بإمكانى التحدث عن حضراتكم،

وعنك،

وعما لديك.

ليس بإمكانى التحدث عما لديه،

ولاعمًا لديك،

ولا حتى عمًا لدينا.

وهذا ما يحدث لى...

أحيانًا أفقد الحرف "يو" *u*

ولا أستطيع التحدث معك،

أو التفكير فيك، أو حبك، أو الحديث معك.

فدون الحرف "يو" *u* أنا أبقى وأنت تختفى...

ودون أن أستطيع تسميتك،

فكيف من الممكن أن أستمتع بوجودك؟

كما هو الحال فى الحكاية... فإذا لم تكن موجودًا

أعاقب نفسى برؤية أسوأ شىء فىَّ

منعكسًا إلى الأبد

فى

المرآة

الغبية

نفسها.

أريـــــد

تُعَبِّر هذه القصيدة عن رؤيتى لشكل العلاقة

بين الناس، نُشرت لأول مرة فى مقدمة

الطبعة الثالثة من كتاب رسائل إلى كلاوديا عام ١٩٨٩.

أريدك أن تسمعينى دون أن تحكمى علىَّ

أريدك أن تقولى لى رأيك دون أن تنصحينى

أريدك أن تثقى بى دون أن تلزمينى

أريدك أن تساعدينى دون المحاولة أن تقررى نيابةً عنى

أريدك أن تعتنى بى دون أن تلغينى

أريدك أن تنظرى إلىَّ دون أن ترى نفسك فىَّ

أريدك أن تحضنينى دون أن تخنقينى

أريدك أن تشجعينى دون أن تضغطى على

أريدك أن تسانديني دون أن تنصبى نفسك مسئولة عنى

أريدك أن تحمينى دون أكاذيب

أريدك أن تقتربى منى دون أن تسيطرى على

أريدك أن تعرفى أكثر الأشياء التى تزعجك فى

أريدك أن تتقبليها دون أن تحاولى تغييرها

أريدك أن تعرفى أن اليوم يمكنك الاعتماد علىَّ

دون شروط.

قصة قصيرة لسيرة ذاتية

يُحكى أنه في يوم من الأيام كان هناك رجل يعيش حياته على سجيته:

شخص عادى وطبيعى

ذات يوم، لاحظ أن الناس بدأت فى تملقه بشكل غامض قائلين له كم هو طويل:

ــ كم أنت طويل !

ــ كيف صرت طويلاً!

ــ إننى أحسدك على طولك!

فى البداية، فاجأه ذلك، ولهذا خلال بعض الأيام لاحظ أنه ينظر بطرف عينيه إلى صورته عند مروره بالواجهات الزجاجية للمحال وفى مرايا الحافلات.

ولكن الرجل كان دائمًا يرى نفسه كما هو، ليس بطويل ولا بقصير...

حاول ألا يعطى الأمر أية أهمية، ولكن بعد مرور بضعة أسابيع، لاحظ أن ثلاثة من بين كل أربعة أشخاص كانوا ينظرون إليه من أسفل، فبدأ يهتم بهذه الظاهرة.

اشترى الرجل متر قياس كى يقيس طوله، وقام بذلك بدقة وبطريقة منهجية، وبعد قيامه بالعديد من القياسات والاختبارات، تأكد من أن طول قامته لم يتغير.

فى حين أن الآخرين كانوا لا يزالون ينظرون إليه بإعجاب.

ـ كم أنت طويل!

ـ كيف صرت طويلاً هكذا!

ـ إننى أحسدك على طولك!

بدأ الرجل فى قضاء ساعات طويلة أمام المرآة ينظر إلى نفسه محاولاً التأكد إذا كان بالفعل قد أصبح أكثر طولاً عما كان من قبل.

لم يعُد لديه حل؛ كان يرى نفسه صاحب قامة طبيعية، ليس بطويل ولا بقصير.

لم يكن سعيدًا بما يحدث، ولهذا قرر أن يضع علامة بالطباشير على الحائط عند أعلى نقطة لرأسه.

(وبهذه الطريقة يكون لديه مرجع موثوق فيه لقياس طول قامته).

بينما كان الناس بدورهم يصرون على قولهم:

ـ كم أنت طويل!

ـ كيف صرت طويلاً!

ـ إننى أحسدك على طولك!

بل إنهم كانوا يثنون ظهورهم للخلف كى يستطيعوا رؤيته من أسفل.

ومرت الأيام.

وعاد الرجل ليضع علامة على الحائط بالطباشير عدة مرات، وكانت العلامة دائمًا على الارتفاع نفسه.

بدأ الرجل يعتقد أنهم يسخرون منه، ولهذا كان كلما تحدث معه أحد عن طوله، كان يغير الموضوع، أو يقوم بسببه أو يغادر المكـــان ببساطة دون أن يتلفظ بأية كلمة.

ولكن دون جدوى... فقد استمر الحال كما هو عليه:

ــ كم أنت طويل!

ــ كيف صرت طويلاً!

ــ إننى أحسدك على طولك!

كان الرجل غاية فى التعقل، ففكر فى وجوب وجود تفسير لكل ذلك.

فقد كان يرى نظرات الإعجاب فى عيون الآخرين، وكم كان ذلك جميلاً لدرجة أن الرجل تمنى أن يكون ذلك حقيقيًا.

وذات يوم خطر بباله أنه ربما خدعته عيناه.

فمن الممكن أن يكون قد كَبُر حتى أصبح عملاقًا، ولسحر ما أو تعويذة ما كان هو الوحيد الذى لايستطيع أن يرى ذلك...

ـ هذا هو! يجب أن يكون هذا ما حدث لى!

منذ تلك اللحظة بدأ الرجل يعيش حقبة مجيدة فى حياته مقتنعًا بهذه الفكرة.

كان يستمتع بالجُمَل التى كانت تُوجَّه إليه ونظرات الآخرين له.

ـ كم أنت طويل!

ـ كيف صرت طويلاً!

ـ إننى أحسدك على طولك!

لم تعُد تؤثر فيه تلك العقدة النفسية لشعوره بالاحتيال على الناس، والتى كانت تنغص عليه حياته.

وذات يوم حدثت المعجزة.

وقف أمام المرآة وبدا له بالفعل أن قامته ازدادت طولاً.

وبدأ كل شىء يتضح أمام عينيه، لقد انتهى تأثير السحر، والآن أصبح بإمكانه هو أيضًا أن يرى نفسه طويلاً.

أصبح معتادًا على المشى بكبرياء.

فكان يمشى ورأسه ملقاه إلى الوراء.

وكان يرتدى ملابس على ذوقه الخاص، فاشترى أزواجًا من الأحذية ذات كعب عالٍ.

وبدأ الرجل ينظر للآخرين من أعلى.

كانت الرسائل الموجهة إليه من الآخرين تملأه بالدهشة والامتنان:

ـ كم أنت طويل!

ـ كيف صرت طويلاً!

ـ إننى أحسدك على طولك!

تحول شعور الرجل من الزهو إلى الغرور ومنه إلى التكبر والغطرسة دون توقف.

لم يعد يتناقش مع من يخبروه بأنه طويل؛ وبالأحرى كان يؤيدهم فى الرأى، وكان يبتدع أية نصائح بشأن كيفية النمو السريع.

وهكذا مر الوقت، وذات يوم تقابل مع القزم، أسرع الرجل المغرور فى الوقوف بجانبه، متخيلاً بصورة مسبقة تعليقه على طول قامته، الحق أنه شعر بأنه أطول من أى وقت مضى.

ولكن للمفاجأة، ظل القزم واقفًا فى مكانه فى صمت، تنحنح السيد المغرور، ولكن يبدو أن هذا لم يلفت انتباه القزم إليه، وعلى الرغم من أنه مد قامته حتى كادت رقبته تنخلع، كان القزم محافظًا على هدوء أعصابه.

وعندما نَفد صبره، همس فى أذن القزم قائلاً:

ــ ألم تندهش من طول قامتى؟ ألا ترانى عملاقًا؟

تَطَلَّع إليه القزم من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم عاود النظر إليه مرة أخرى، وقال له بنبرة يملؤها الشك:

ــ حسنًا، نظرًا لقصر قامتى أرى الجميع عمالقة، والحقيقة أنك من هنا لا تبدو لى أكثر طولاً من الآخرين.

نظر إليه السيد المغرور باحتقار، وصرخ فى وجهه قائلاً:

ــ يا لك من قزم!

عاد إلى بيته، وركض نحو المرآة الكبيرة التى توجد بالصالة ووقف أمامها...

لم يرَ نفسه طويلاً جدًّا كما كان يرى نفسه ذلك الصباح.

وقف بجانب الحائط، وضع علامة قـدر قامتـه بالطباشـير، وكانت العلامة متطابقة مع كل العلامات السابقة!

أخذ مقياس الطول (المتر)، وقام بقياس نفسه وهـو يرتجـف، ليتأكد مما هو على علم به.

لم تطل قامته ولا حتى ملليمترًا واحد...

لم تطل بالفعل قامته ولا حتى ملليمترًا واحد...

ولأول مرة منذ وقت طويل، عاد ليرى نفسه شخـصًا آخـر، شخصًا مثله مثل الآخرين.

عاد ليشعر بطوله الطبيعى؛ ليس بطويل ولا بقصير.

ماذا سيفعل الآن عندما يتقابل مع الآخرين؟

فهو يعرف الآن أنه لم يكن أطول من أحد.

بكى السيد.

ونام فى فراشه واعتقد أنه لن يخرج أبدًا من منزله.

كان يشعر بالخجل الشديد من طوله الحقيقى.

نظر من النافذة ورأى الناس الذين يقطنون الحى الذى يعيش فيه يسيرون أمام منزله...

كانوا يبدون جميعًا أمام عينيه طوال القامة!

ركض والفزع يتملكه ليقف أمام المرآة التى توجد بالصالة، ولكن هذه المرة ليتأكد من أنه لم يصغر.

لا إن طوله كما هو.

وحينئذٍ أدرك أن

كل واحد ينظر إلى الآخرين إما من أعلى أو من أسفل.

كل واحد يرى الآخرين إما طوال القامة أو قصار القامة بناءً على موقفه ووضعه فى العالم.

وفقًا لحدوده

وفقًا لعاداته

وفقًا لرغباته

وفقًا لاحتياجاته...

ابتسم الرجل وخرج إلى الشارع.

كان يشعر بأنه غاية فى الخفة تكاد قدماه لا تلامس الرصيف.

تقابل السيد مع مئات الأشخاص الذين كانوا يرونه عملاقًا، وآخرين كانوا يرونه عديم الشأن، ولكن لم يستطع أى منهم أن يشغل باله أو يزعجه.

فالآن هو يعلم جيدًا أنه إنسان آخر.

واحد آخر...

كسائر البشر...

الحزن والغضب

إلى"أنا ماريا بوبو"

يُحكى أنه في مملكة مسحورة، حيث الخيال يصبح واقعًا ملموسًا، لم يستطع البشر الوصول إليها، أو ربما كانوا يعبرون بها فى طريق حياتهم السرمدى دون أن يدركوا ذلك.

كانت توجد بركة عجيبة.

بحيرة ذات مياه بلورية ونقية، تسبح فيها أسماك بكل الألوان المعروفة، وينعكس فيها اللون الأخضر بكل درجاته وأطيافه.

حتى جاء ذلك اليوم الذى اقترب فيه ***"الغضب"و"الحزن"*** من البِركة السحرية ذات المياه الصافية الشفافة كى يسبحا فيها معًا.

نزع كل منهما ثيابه ونزلا فى البركة عاريين.

أخذ ***"الغضب"*** الذى كان متعجلاً دون معرفة السبب، يسبح سريعًا (كما هى عادة الغضب دائمًا)، وسرعان ما خرج من المياه.

وكما هو معروف أن الغضب أعمى، أو على الأقل لا يمكنه تمييز الواقع بوضوح، لذا كان وهو عريان فى عجلة من أمره، وعند خروجه من المياه ارتدى الثياب التى وجدها أمامه.

ولم تكن الثياب التى ارتداها ثيابه، بل كانت ثياب رفيقه "*الحزن*"...

وهكذا ذهب "*الغضب*" مرتديًا ثياب "*الحزن*".

فى ذلك الوقت، بهدوئه وبطئه الشديدين، واستعداده كعادته أن يظل فى مكانه، انتهى "*الحزن*" من استحمامه دون أى عجلة، أو بالأحرى دون أن يدرك مرور الوقت، خرج من البحيرة بكسل وبطء.

وعلى ضفاف البحيرة أدرك "*الحزن*" أن ثيابه قد اختفت.

وكما نعلم جميعًا أن الشىء الوحيد الذى يكرهه الحزن هو أن يظل عاريًا، وهكذا ارتدى "*الحزن*" الثياب الوحيدة التى وجدها أمامه بالقرب من البحيرة؛ وكانت ثياب "*الغضب*".

ويُحكَى أنه منذ تلك اللحظة، كثيرًا ما يجد المرء نفسه أمام "*الغضب*" الأعمى والقاسى والمخيف، ولكن لو تمهلنا قليلاً وأمعنا النظر لأدركنا أن الغضب الذى نراه ما هو فى حقيقته إلا قناع يختبئ الحزن وراءه.

رسالة من قاتل مُعتَرِف

السيد الدكتور/ خواكين ماريا أياناك

شارع جواليجوايشو رقم ٤٣١

العاصمة الفيدرالية

خطاب مسجل بعلم الوصول

السيد المحترم

قبل كل شيء، عليَّ أن أخبرك أنك لا تعرفني، على الأقل ليس بالمعنى العام للمعرفة.

أو بالأحرى لا تعرفني بقدر ما أعرفك أنا.

أريد أن أقول إن اسمك وعنوانك مدونان لدى، أعلم سنك وذوقك والمكان الذى تذهب إليه لقضاء الإجازات وماركة السيارة التى تستخدمها، أعلم اسم زوجتك وأسماء أبنائك، وحتى اسم كلبك "الكوكر" (إنه "بونجو" أليس كذلك؟) يراودنى التفكير فى أنه ربما تقلقك قليلاً تلك البيانات الشخصية.

وككل الأشخاص الذين تنقلوا عبر مراكز السلطة، فإنك تعانى مثلهم من أعراض البارانويا[*]؛ أعتقد أنك تتساءل: كيف يعرف عنى هذه الأشياء؟ من أين حصل على هذه البيانات؟

(*) هى حالة نفسيّة مرضيّة من أنواعها جنون العظمة والاضطهاد، يعتقد المصاب بها أن له ذكاء خارقًا وأنه يتمتع بكل الاستحقاقات والامتيازات. (المترجمة)

وكى لا تظل مشغول البال بهذه التساؤلات، أُعجِّل بالرد عليك بأنه لا توجد بيانات سرية لا يمكن الحصول عليها بالقليل من المال، والكثير من الوقت، والحق أنه لا ينقصنى لا هذا ولا ذاك. أعتقد أحيانًا أن ما يجعل الرب قادرًا على كل شيء ليس القدرة، ولكن الصبر اللانهائى والذى يؤدى إلى الخلود. ونحن البشر، فى المقابل، نواجه أمورنا بهذه الدرجة من التعجل الذى يجبرنا عليه إدراكنا أننا إلى زوال.

نعم، لإجراء أى تحريات جادة يجب إضافة القليل من الذكاء على الصبر، وبالطبع يجب إضافة الاهتمام بما يتم التحرى عنه بالتناسب مع صعوبته (لأنه علاوة على ذلك، إن لم يكن لديك اهتمام، فمن المستحيل أن تشحذ ذكاءك).

ربما يكون من العدل أن أبدأ بأن أحكى لك متى بدأ اهتمامى بسيادتك.

من المحتمل ألا تتذكر ما حدث نظرًا لمضى العديد من السنوات، ولكن ذات يوم، بالتحديد يوم الخميس ٢٣ يولية عام ١٩٩١ بعد الساعة الثانية مساءً (تحديدًا الساعة الثانية والربع)؛ مررت بسيارتك الرمادية اللون ماركة بى إم دبليو بشارع أبيانيدا فى حى فلوريس، كان المطر ينهمر طوال المساء، وكانت الشوارع مغمورة

بالماء كالعادة. وعندما وصلْت إلى ناصية شارع " أرتيجاس" قمــتَ بالدوران ناحية الشمال بكامل سرعتك، كما تحب أن تفعل دائمًا، مما جعل الجزء الخلفى من السيارة ينحرف قليلاً، ثم سلكت شارع جاونا، وهناك بالتحديد، على بعد أمتار من شارع أبيانيدا كانت توجد حفرة، كنت تعرف ذلك، كنت على علم بوجود تلك الحفرة؛ لأنــك ابتعــدت ناحية اليمين كى تتفاداها (هل تتذكر؟)، وعندما فعلت ذلك، لطخــت بالماء والوحل الرجل العجوز الذى كان يحــاول أن يَعبُــر الــشارع منتهزًا أن إشارة المرور أوقفــت حركــة ســير العربــات بــشارع أرتيجاس، لقد لطخته تمامًا بالماء من أعلى إلى أسفل، مــن ركبتيــه حتى قبعته.

لقد رأيتَ ذلك الرجل، أعلم أنك رأيتَه.

وبصورة غامضة، وعلى غير المتوقع، أيها الدكتور لم تتوقف!

ولم تكتف بعدم الوقوف فقط؛ بل علاوة على ذلك (وهو ما كان ذا مغزى أكبر) صدرت عنك إيماءة استمرت ثلاث ثوان أو أربع ليس أكثر، إشارة احتقار وتجَهُّــم ضيق والتواء بالفم لعدة ملليمترات، وتبع هذا ضم خفيف، خفيف جدًا للكتفين، كل هذا عبَّر بوضوح وسرعة عن كل ما يلزم معرفته حول قراءتك لكل ما حدث.

في ذلك اليوم قلت لنفسي: " يا له من شخص سيئ!"

أود أن أوضح شيئًا يتعلق بي، فأنا لا أقوم بالحكم المسبق على الأشياء، ولا أضمر الضغينة نحو السيارات التي يتم استيرادها ولا ضد مالكيها. كما أعتقد أنني متفهم ومتسامح. ولهذا، فيما بعد، فكرت أنه ربما أكون مخطئًا وأن سلوكك لم يكن كما كنت أتصور، أو أنه ربما كان سلوكك هذا معي شيئًا استثنائيًا.

ربما كان استثناء للقاعدة التي تتبعها في حياتك، أو وليد لحظة سيئة تمر بها أو خطأ أو مجرد تعبير جاف...

أتمنى أن تتفهم يا دكتور، فبالنسبة إلى شخص مثلي، لا يعرف أنصاف الحلول ولا اللون الرمادي، الأشياء إما أن تكون أو لا تكون. والطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كنت نذلاً أم لا، هو أن أقوم بإجراء تحريات عنك، تحريات جادة... وهذا بالفعل ما قمت به!

خلال السنوات الخمس الأخيرة كرست نفسي لمعرفة أشياء عنك، لدعم أو لتصحيح الانطباع الأول المخيف الذي أخذته عنك جراء سلوكك.

وها أنا ذا يا دكتور أياناك، فقد انتهيت من إجراء التحريات، أو بالأحرى ما توصلت إليه يكفي ويزيد لاستخلاص نتيجة مؤكد؛ ألا وهي أنك أكثر حقارة مما كنت أعتقده في عام ١٩٩١.

ففى اليوم التالى للحادثة، الموافق ٢٤ يولية، فى تمام الساعة الواحدة والنصف مساءً، توقفت عند الناصية نفسها ما بين شارعى أرتيجاس و أبيانيدا منتظرًا أن تمر على افتراض أنك مثلى، لا تغير عاداتك اليومية (دائمًا ما يدهشنى هذا الهوس السيئ الذى لدينا نحن البشر، بأن نجعل من عاداتنا قيدًا صارمًا؛ فمثلاً نأكل دائمًا الطعام نفسه، ونرتدى الألوان نفسها، ونُصيف فى المدينة نفسها، وندخن ماركة السجائر نفسها، وبالطبع نسير فى طرقات المدينة نفسها لنذهب من مكان إلى آخر).

وسيادتك لست استثناءً، ولهذا فى تمام الساعة الثانية وأربع عشرة دقيقة، قمت بالدوران مرة أخرى بسيارتك البى إم دبليو فى شارع أرتيجاس متجهًا نحو شارع جاونا، وتفاديت الحفرة الموجودة بشارع أرتيجاس مقتربًا من الرصيف الذى يوجد ناحية اليمين.

ذلك اليوم، لم يكن هناك ماء على الأرض ولا رجل عجوز يعبر الشارع، لم تكن هناك إيماءة بالوجه ولا شىء يمكن أن يلهينى عن تدوين رقم لوحة السيارة:

B - 2153412.

وفى يوم الاثنين الذى يليه قررت ألاَّ أذهب إلى العمل، وأن أتفرغ لإجراء التحريات اليوم بأكمله؛ ولهذا ركبت سيارتى، وقمت بالوقوف بشارع أرتيجاس، ومن جديد انتظرت أن تمر، وفى الساعة نفسها قامت السيارة المستوردة الرمادية اللون بالدوران، ومن ثم قمت بملاحقتها، مخترقًا شارع خوان بى بوستو، ثم شارع وارنيس، فشارع سيرانو، فشارع سانتافى، فشارع جوروشاجا. أعترف بأننى تضايقت قليلاً عندما رأيتك تترك سيارتك فى الأماكن المخصصة لقسم الشرطة الذى يوجد بناصية شارع سانتافى وشارع جوروشاجا؛ وتصورت للحظة أنك من الممكن أن تكون أحد رجال الشرطة، أو شىء من هذا القبيل؛ ولكن لا، فأنت لم تدخل حتى إلى قسم الشرطة. فقد مررت أمام باب القسم وقام الحارس المدنى بتحيتك تحية عسكرية، وقد رأيتك من سيارتى تسير فى شارع سانتافى مسافة عشرين مترًا أو ثلاثين فى اتجاه شارع كانينج، ثم دخلت إحدى المبانى، وفى تلك اللحظة أطلق الحارس المدنى صوتًا بصافرته مشيرًا إليك حتى تتقدم.

أيها الدكتور، لماذا يمكنك ترك سيارتك فى مكان مخصص لقسم الشرطة، بينما يتوجب علىَّ الذهاب للبحث عن مكان أترك فيه سيارتي، وهى مهمة صعبة خاصة فى تلك المنطقة من المدينة؟

أيها الدكتور، لماذا تحولنا إلى جمع مختصر من الامتيازات الغامضة التى تمنح للبعض أو يغتصبها البعض للاستفادة منها على حساب الآخرين؟

ولماذا لمجرد أن يشغل شخص ما وظيفة مثل وظيفة مفتش الشرطة أو نائب مفتش الشرطة، يسمح له بامتلاك قطعة من المدينة يترك فيها سيارته، والأكثر من ذلك تُخَوِّل له السلطة لنقل هذه الهبة إلى الآخرين؟

لأنك يا سيادة الدكتور أنت لا تعمل بقسم الشرطة، بل أنت "صديق لمفتش الشرطة"، هل هذا يعطيك الحق فى امتلاك بعض المترات من الطريق العام؟ ماذا دفعت ثمنًا لهذه الهبة يا دكتور؟ هل أُعطيت لك مقابل صنيع معروف؟ أم مقابل القليل من المال؟ أم مقابل الحصول على منحة تعويضية بطريقة غير شريفة؟

تركت سيارتى وأنا أتمتم بكلمات بذيئة ضدك وضد الشرطة والبلدية والنظام، وسرت مسافة مربعين سكنيين فى طريقى للعودة إلى شارع سانتافي.

وفى نهاية المساء كنت قد علمت كل ما أحتاجه؛ كى أبدأ تحرياتي. فقد توصلت إلى اسمك وعنوان مكتبك ووظيفتك (محامى مختص فى القانون الجنائى)، ومواعيد عملك: كل اثنين وأربعاء وخميس وجمعة من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة.

وحتى اللحظة التى دخلت فيها مكتبك، أعترف أننى كان يساورنى الشك بشأن افتراضاتى نحوك، فلم تكن واقعة شارع فلوريس أو الامتيازات المخولة لك والتى مارستها فى موقف السيارات أمام قسم الشرطة؛ لم يكونا كافيين بالنسبة إلىَّ؛ ولكن عندما أعطتنى سكرتيرتك ميرتا- تلك الشقراء التى لديها ولدان وتعيش فى لينيرس- ميعادًا لمقابلتك فى تمام الساعة الثانية بعد ظهر الاثنين التالي، أدركت عدم احترامك للآخرين؛ لأن سكرتيرتك تنفذ توجيهاتك يا دكتور، وأنت تعلم كما أعلم أنه ليس بإمكانك الوصول فى تمام الساعة الثانية، ففى الساعة الثانية والربع تمر بسيارتك عبر شارع أرتيجاس فى حى فلوريس!

ماذا يُفْتَرَض أن يفعل الشخص الذى أخذ ميعادًا لمقابلتك فى الساعة الثانية، فى الفترة ما بين الساعة الثانية مساءً والثالثة إلا الربع حين تصل؟ ماذا يفعل حيال مشكلته القانونية وحيال قلقه وغضبه؟ أنت لا تعرف ماذا يفعل أليس كذلك يا دكتور؟ أنت لا تعرف ذلك ولا تبالى بالأمر، فلينتظر هذا الآخر، فلينتظر.

أعترف يا دكتور، أن رأيى فيما يتعلق بالمحامين المختصين فى القانون الجنائى لم يكن قط رائعًا، فدائمًا كنت أفكر أنه يجب على

الأشخاص أن يكون لديهم تصور خاص بوظيفتهم التي يختارونها لأنفسهم فيما بعد، فليس من قبيل الصدفة أن يكون الأطباء كافة تقريبًا مصابين بوسواس المرض، وأن يكون رجال الاقتصاد كافة تقريبًا غشاشين، وأن يكون المحامون غير موثوق بهم. لقد خصصت شهورًا كثيرةً من بحثي لدراسة علم النفس. كانت محاولة للوصول إلى فهمك وفهم طريقة أدائك، فلم أتصور أن رجلاً قد كرَّس نفسه لتحقيق العدالة يفكر فى الأخلاق والعدل على هذا النحو المرفوض. حينئذٍ أدركت ما يسمى بالتدريب على رد الفعل (وهى آلية مفترضة عن طريقها يعمل المرء على محاولة تغيير طبيعة الفعل الذى أدت إليه رغبة مذمومة...).

من الممكن أن يكون علم النفس أكثر تعاطفًا معك عنى أيها الدكتور، وعلميًا فإنك تقوم بتهذيب الطباع عن طريق وظيفتك، هذا مايتم إعلانه، لدرجة أنها تبدو معها مهنة نبيلة.

لا يا دكتور، لا توجد أية آلية خاصة بردود الأفعال من الممكن أن تبرر على سبيل المثال أنك قد استطعت الإفراج عن موكلك المدعو فوينتيس أوربيدى، وذلك عن طريق إلصاق التهمة بشريكه وصهره، على الرغم من أنك تعلم جيدًا أن الآخر كان بريئًا،

لقد كنت على علم بأن طريقة تقديمك وطرحك للدفاع ستنتهى بتبادل موقع موكلك فى السجن بموقع المجنى عليه. ومع ذلك، فعلتها، فلم يكن دفاعك دفاعًا عن العدل يا دكتور، ولا حتى عن موكلك.

فقد كنت تدافع عن أتعابك وشهرتك ومصلحتك الشخصية، وبعد مرور أسبوعين من القبض على شريك موكلك، تحدث إليك شخص بشأن القضية فى إحدى طرقات المحكمة، كان الحديث به نوع من اللوم على أنك قمت "بإرساله إلى السجن"...

هل تتذكر ماذا كانت إجابتك يا دكتور؟ إن كلماتك لا تزال تدوى فى رأسى، وكأننى كنت هناك أسمعك وأنصت إليك، لقد قلت: "حسنًا، إذا لم يكن فى مقدرته دفع أتعاب محامٍ جيد، فليذهب إلى الجحيم!".

لا يوجد ما يبرر رد فعلك يا دكتور؛ فلا يوجد أى تفسير راقٍ لمواقف أشخاص غاية فى النذالة.

هل سنقوم بإلقاء اللوم على طباعك، بالمقياس المادى نفسه الذى تدير به علاقاتك الشخصية؟

هل سنفسر الآن موقفك فى مطعم بشارع ألبيار فى أحد أيام شهر سبتمبر على أنه عقدة "الخوف من الفقر"...؟

دعنى أساعدك على التذكر...

حدث ذلك منذ سنتين تقريبًا، كنت تتناول الغذاء مع عشيقتك ماريا إلينا فى مطعم ألبيار، ولهذا لابد أن يكون يوم الثلاثاء (لقد استغرقت كثيرًا من الوقت كى أعى أن يوم الثلاثاء هو اليوم الذى تخصصه للقاء عشيقتك)؛ لقد كنت أشاهدكما- كما كان يحدث فى مرات أخرى كثيرة - وأنا جالس على طاولة ليست بعيدة كثيرًا عنكما. فى ذلك اليوم، بينما كنا نأكل، دخل طفل يبلغ من العمر حوالى عشر سنوات يقوم ببيع الورود بين الطاولات، لم يره أحد؛ ولا حتى النوادل ولا ماريا إلينا ولا أنا... وفجأة، صرخت أنت قائلاً: "أيها النادل!". اقترب النادل الذى يقوم على خدمتك دائمًا- ويخشاك بقدر ما يكرهك- بسرعة، وحينئذ جعلت النادل يلقى بالصبى فى الشارع وهو يدفعه بعنف.

إن علم النفس لديه الكثير من التفسيرات لهذه النذالة، ولكنى ليس لدى إلا تفسير واحد فقط، وهو أنك نذل أيها الدكتور، إنك نذل لدرجة أنك لا تستحق أن تعيش.

وستفكر: " هذا الرجل ، ما الذى يهمه فى هذا الأمر؟". يهمنى أيها الدكتور، يهمنى كثيرًا...

يهمنى لأننى أنا ذلك العجوز الذى لطخته بالوحل فى شارع أرتيجاس وجاونا منذ خمس سنوات، يهمنى لأننى أنا أيضًا الذى يضطر أن يمشى كل يوم مسافة مربعين سكنيين، لأنه لا يمكنه ترك سيارته في شارعَىْ جوروشاجا وسانتافى؛ يهمنى لأننى أنا زوجتك أيها الدكتور، زوجتك التى تتمنى أن تتناول الطعام يومًا معك، ولأننى أنا أيضًا- بطريقة ما- عشيقتك التى تتمنى ألا تأكل معك يومًا من أيام الثلاثاء، يهمنى لأننى أنا السجين البرىء الذى دفع حريته ثمنًا لذنب لم يقترفه، يهمنى لأننى- بطريقة أو بأخرى- أنا الطفل الذى حاول بيع الزهور بالمطعم الذى يوجد بشارع ألبيار.

كان علماء النفس قد علمونى الكثير فيما يتعلق بآلية عمل العقل البشرى، ولهذا يجب أن أسلم فى النهاية، حتى لو كان هذا الأمر يؤلمنى، بأن هذا الأمر يهمنى لأنه من المؤكد أننى نذل مثلك يا دكتور.[**فأنا فاسد، ومتكبر، وعدوانى، وصاحب مصلحتى، وأنانى، ووضيع، ومتسلط، وحقير مثلك]**. فى السنوات الأخيرة يا دكتور، فكرت للحظات أنك لست سوى جزء منى، جزء مفزع من شخصيتي، لديه حياته المستقلة والذى يُظهر أسوأ ما بى فى كل موقف يقوم باتخاذه.

أعتقد أنه بناءً على تلك الأفكار الخاصة "بالتجسيد" و"التطابق فى الهوية" و"الانفصام فى الشخصية"؛ أدركت أنك لست فقط لا تستحق الحياة، وإنما أيضًا يجب أن تموت.

نعم يجب أن تموت! ولكن كيف ؟

من يعرف...

ما هى الطريقة الأكثر عدلاً؟ هل عن طريق حادث؟ أو أزمة قلبية؟ أو عن طريق الانتحار؟ لا أعرف...

فالطريقة الأكثر نزاهة، بلا شك، ستكون ناعمة وبسيطة وهى القتل؛ بمعنى أنه فى النهاية، سيتخذ شخص ما القرار بقتل النموذج الذى تمثلنا به.

هل تدرك سبب رسالتى يا دكتور؟

لا أكتب إليك كى تشعر بالندم...

أكتب إليك (لأننى أعتقد أن الأمر يخصك) لإخبارك بأننى قد اتخذت قرارًا بقتلك.

وبالطبع أعلم جيدًا أنك ستفكر فى اتخاذ إجـراءات احترازيـة مثل: الحرس والأسلحة والحرس الشخصى وأنظمة الإنذار ووضـع

حراسة فى بيتك وإجراء تحريات خاصة عن كل العاملين لديك...إلخ.

ولكن إلى متى ستستطيع أن تحافظ على كل هذا؟

لقد كلفنى الأمر خمس سنوات من جمع المعلومات التى أعانتنى على أن أصدر حكمًا بعدالة! من الممكن أن أنتظر خمس سنوات أو عشر أو عشرين سنة كى أقوم بالتنفيذ، ففى لحظة ما ستضعف هذه الرقابة وسيُنسى الحذر وستقع بعض التفاصيل... وفى هذه اللحظة دكتور أياناك، سأكون فى انتظارك.

من الممكن أن أحدًا يساوره الشك (أو ربما تشك أنت شخصيًا) فيما إذا كان هذا الإنذار بالقتل حقيقيًا.

فيما إذا كنت أنا حقيقيًا...

كيف تعرف أن هذا - على سبيل المثال - ليس مظهرًا من مظاهر الشعور بالذنب فى اللاوعى عندك؟ ففى مجال علم النفس غير المتحضر، من الممكن لأحد أن يسأل إذا ما كانت هذه الرسالة موجهة منك شخصيًا إليك كى تلوم نفسك على أفعالك الحقيرة.

وعلى النقيض، فإننى أعتقد أنك غير قادر مطلقًا على الشعور بالذنب.

فإننى أعتبرك شخصًا لا أخلاق له بالمعنى الواضح للكلمة.

على الرغم من القلق الذى من الممكن أن تثيره هذه الاحتمالية؛ ولأن الشرطة سوف تقوم بالتحقق من الأمر، فهذه الرسالة قد كُتبت بالآلة الكاتبة التى توجد على مكتبك بالمنزل الذى يقع فى فلوريستا، وهى مكتوبة على أوراق من نوع الأوراق نفسه الذى تستخدمه، وقد خرجت من درج مكتبك، وإذا فكرنا فى الوقت الذى استغرقته كتابة هذه الرسالة على الآلة الكاتبة، نتوصل إلى أن الشخص الوحيد الذى من الممكن أن يكون قد كتبها دون إثارة أدنى قدر من الشك... ستكون سيادتك شخصيًا أيها الدكتور.

يعجبنى هذا القليل من الغموض فى النهاية الذى يغلف قصتنا؛ لأنه يعطيها لمسة خاصة بقصة بوليسية تأخذ بعقلى، سوف أحتفظ بالسر الخاص بكيفية كتابتى لها كى أستطيع أن أعاود الكتابة إذا لاح فى الأفق شىء آخر يجب أن أخبرك به.

والآن أودعك، ولكن ليس دون أن تسمح لى بطلب واحد.

اعتنِ بنفسك دكتور أياناك، اعتنِ بنفسك! فلن أرضى بسبب الإهمال أن تصاب بحادث حقيقى يجعل كل ما قمتُ أو أقوم به شيئًا عديم الجدوى.

ج . م. أ


وهم

(تم نشره فى كتاب "رسائل إلى كلاوديا ".

دار نشر *RBA* ، فى عام ٢٠٠٥)

يحكى أن فلاحًا سمينًا وقبيحًا

كان– ولم لا ؟ – قد وقع فى غرام

أميرة شقراء جميلة...

وذات يوم، أعطت الأميرة قبلة للفلاح القبيح؛ سوف تعرف لماذا.

وبطريقة سحرية، تحول الفلاح إلى

أمير رشيق وأنيق.

(على الأقل، هكذا كانت تراه هى...)

(على الأقل هكذا كان يشعر هو...)

المحـــارب

" يمكننى القول عن الحب الذى أحببته

بأنه ليس خالدًا نظرًا لأنه لهيب لكنه

لا متناهٍ فيما يدوم"

فنِيسْيُوشْ دِى مُورَايِش(*)

كان الجسد الضخم للمحارب السومرى الذى يـدعى خورمـا محفورًا بالندبات وقد لوح جلده الشمس والجليد.

وتحكى الرواية أنه ذات مرة، بينما كان يسير راكبًا حصانًا برفقة ثلاثة من أصدقائه، وينتقل من مدينة إلى أخرى، وقعوا فى كمين أعده ألد أعدائهم.

حارب المحاربون الأربعة بشراسة، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى خورما، بينما لقى أصدقاؤه الثلاثة مصرعهم أثناء القتال.

أدرك خورما وهو ملطخ بالدماء ومنهك، أنـه بحاجـة إلـى الراحة؛ كى يستعيد قوته ويتعافى من جروحه.

(*) كاتب وشاعر ودبلوماسى برازيلى، كتب كلمات العديد من الأغانى التى أصبحت من الأغانى الكلاسيكية البرازيلية. (المترجمة)

نظر حوله فى محاولة للبحث عن مكان آمـن إلـى أن لمـح مغارة صغيرة محفورة فى جبل قريب.

كان تقريبًا يجر نفسه حتى وصل إلى هناك داخل الكهف، بسط على الأرض جلد الدب الذى كان يحمله وراح فى نوم عميق.

بعد مرور ساعات أو أيام، أيقظه الجوع.

شعر أن معدته كانت ساخنة بعض الشىء، وعلى الرغم من شعوره بالألم، قرر الخروج للبحث عن بعض فروع الأشجار وجذوعها الجافة لإشعال نار صغيرة فى ملجأه المؤقت حتى يمكنه أكل القليل من اللحم المملح الذى كان يحمله معه، وعندما أضاءت النار باطن الملجأ، لم يصدق المحارب ما رأته عيناه، فالمكان الذى عثر عليه لم يكن مجرد كهف وإنما كان معبدًا، معبد محفور فى الصخر.

اكتشف الرجل السومرى من الكتابات والرموز التـى كانـت محفورة؛ أن المعبد كان قد تم إنشاؤه تكريمًا لإله واحد.

ألا وهو الإله "جوتشو".

وكان "خورما" قد تعلم ألا يثق فى المصادفات، وربما لذلك لم يتردد فى التفكير فى أن خطواته ساقته إلى الكهف بإرادة إله هذا المعبد، كى يضمن ذلك الإله أن ترقد روحه فى سلام.

استنتج خورما أن ذلك كان ذا مغزى، ومنذ تلك اللحظة كرس سيفه لخدمة الإله جوتشو.

وقرر البقاء هناك حتى تلتئم جروحه.

فى تلك الأثناء قرر إشعال نار كبيرة تحت المذبح الذى يعتليه تمثال ضخم للإله مصنوع من الحجر، واصطياد أى حيوان ليقدمه قربانًا للإله.

ظل المحارب بالكهف خمسة أيام وخمس ليال، استعاد خلالهم عافيته وأخلص العبادة للإله جوتشو.

وخلال تلك الفترة من الزمن، لم يدع لهيب النار الذى كان يضيء المذبح ينطفئ.

وفى اليوم السادس، أدرك خورما أنه قد حان الوقت للمُضى قدماً فى طريقه، وأراد قبل الرحيل أن يقدم هدية للإله جوتشو شكرًا وامتنانًا له.

"إشعال نار لا تنطفئ أبدًا – فكر خورما – ولكن، كيف يمكن عمل ذلك؟"

خرج خورما من الكهف وجلس على صخرة تقع على حافة الطريق؛ كى يفكر فى حل لهذه المشكلة.

كان يعلم أن القليل من الزيت سيساعد على الاحتفاظ بالنار مشتعلة، ولكن هذا لم يكن كافيًا.

فكر للحظة أنه ربما يجب عليه البحث عن الكثير من الحطب، الكثير بحيث لا يمكن أن ينفد أبدًا؛ بالقدر الذى يجعلها تستمر إلى الأبد، ولكن سريعًا ما أدرك أن هذا المجهود سيذهب سُدى، فالكثير من الخشب سيزيد من شدة النار ولكن لن يطيل مدة اشتعالها...

وهنا توقف أمام خورما راهب يرتدى عباءة بيضاء كان يسير فى الطريق.

ربما بسبب الفضول أو بسبب المفاجأة لرؤية مُحارب فى موقف تأمُّل، جلس الراهب أمام الرجل السومرى، وظل ينظر إليه دون حراك، وكأنه قد تحول إلى جزء من المنظر الطبيعى.

وبعد مرور ساعات، عندما مالت الشمس للمغيب كان خورما ما زال يفكر.

كانت تشغله بشدة مسألته حتى إنه لم يفاجأ كثيرًا عندما تحدث إليه الراهب.

- ماذا أصابك أيها المحارب؟ يبدو أنك مشغول البـال، هـل بإمكانى مساعدتك؟

- لا أعتقد ذلك - قال المحارب - هذا الكهف يا سيدى هـو معبد للإله جونشو، والذى كان ملاذى منذ خمسة أيام قمريـة، إليـه أؤدى صلواتى، وهو الهدف الأخير لكفـاحى فـى الحيـاة، قريبًـا سيتوجب علىَّ الرحيل وأريد تكريمه إلى الأبد، ولكنى لا أعرف كيف أستطيع أن أُبقى إلى الأبد النار التى قمت بإشعالها.

هز الراهب رأسه وكأنه كان متنبئًا بما تطرق إليه فكر المحارب، وقال له:

- لكى تبقى النار مشتعلة إلى الأبد، ستحتاج إلى أكثر من الخشب والزيت.

- ماذا سأحتاج؟- أسرع خورما فى السؤال- ماذا أحتاج غير ذلك؟

- السحر- قال الراهب بنبرة جافة.

- ولكننى لست ساحرًا ولا أعرف شيئًا عن السحر.

- فقط السحر هو الذى يمكنه أن يجعل أى شىء يستمر إلى الأبد.

– إننى أريد أن تكون هذه النار أبدية – قال المحارب – ثم أضاف: لو حصلت على السحر، هل تستطيع أن تؤكد لى أن النار المشتعلة ستكون أبدية؟

– أؤكد لك؟! منذ أسبوع واحد لم تكن تعرف حتى بوجود هذا المعبد الخاص بالإله جوتشو، واليوم تريد له تكريمًا أبديًا، هذا هو ما تريده اليوم، هل يمكنك تأكيد أن رغبتك هذه ستكون أبدية؟

صمت خورما.

أدرك المحارب أنه لا يوجد أحد يمكنه تأكيد أن أية رغبة ستستمر إلى الأبد.

هز الراهب رأسه مجددًا وانتفض واقفًا.

اقترب من خورما وأسند يديه المفتوحتين على صدره قائلا:

– سأطلعك على سر...

يستمر السحر فقط كلما كان هناك إصرار على تحقيق الرغبة!

ثـــورة

فجأة، رن الجرس، وسمعته يقول:

- هل أنت هنا؟ لقد حان الوقت!

- أجبت بشكل تلقائى إنى قادم.

- لقد تأخر الوقت، افتح الباب.

كنت قد ضقت ذرعًا.

فكرت أن أمسك الشاكوش وأفعلها.

فمع قليل من الحظ بإمكانى، وبضربة واحدة، التخلص من هذا العذاب المستمر.

سيكون الأمر رائعًا.

لن يكون هناك المزيد من القيود.

لن يكون هناك المزيد من الأمور العاجلة.

لن يكون هناك سجن بعد اليوم!

عاجلاً أم آجلاً سيكتشف الجميع ما فعلته.

عاجلاً أم آجلاً سيتشجع أحدهم على تقليدى.

وبعد ذلك، ربما شخص آخر.

وآخر.

وآخرون كثيرون سيكتسبون الشجاعة.

من الممكن أن تسمح ردود الأفعال المتتالية بالقضاء على الظلم إلى الأبد.

أن نتخلص منهم بصورة نهائية.

أن نتخلص منهم بأشكالهم كافة.

سريعًا ما أدركت أن حلمي كان مستحيلاً.

يبدو أن استعبادنا هو في الوقت نفسه الشيء الوحيد الذي في استطاعتنا...

فنحن من قمنا بصنع سجَّانينا.

والآن، لن يكون هناك مجتمع دونهم.

ولابد أن أقبل...

لن نستطيع الحياة دون ساعات!

بذور أحـــلام

فى عام ١٩٨٠ عَثرْتُ على بعض الكتب الخاصة بالدكتور إيرا بروجوف(*) واستعارته الرائعة الخاصة بالبلوط والسنديان (**). وأوحت إلىّ قرائتى لأعماله بهذه الفكرة.

فى صمت تأملى

شعرت بعالمى الداخلى

وكأنه بذرة صغيرة

ليست لها أهمية

ولكنها أيضًا تذخر بالإمكانيات.

أرى فى أحشائها

بذرة شجرة رائعة

شجرة حياتى

(*) كاتب وطبيب نفسى أمريكى. (المترجمة)

(**) شجرة السنديان: بلُوط، وهو جنس أشجار حرجيّة من فصيلة السنديانيات أو البلُوطيّات، وهى أشجار ضخمة معمرة، قد تبلغ ٥٠٠ سنة وأحيانًا ٢٠٠٠ سنة من العمر. (المترجمة)

وهى فى طور النمو.

كل بذرة فى مهدها تحتوى على

روح الشجرة التى ستكون فيما بعد.

فكل بذرة تعرف كيف تصير شجرة

فتقع فى أرض خصبة

وتمتص العصارة التى تمدها بالغذاء

تبسط الأغصان وأوراق الشجر

وتمتلئ بالورود والثمار

لكى تعطى ما يجب أن تعطيه.

فكل بذرة تعرف

كيف تصبح شجرة.

وكثيرةٌ هى البذور

كالأحلام السرية.

فبداخلنا، عدد لا نهائى من الأحلام

تنتظر الوقت الذى تنبت فيه

تنطلق فيها الجذور وتخرج جنينها إلى النور

فتموت البذور

كى تتحول إلى أشجار.

أشجار رائعة وفخورة بنفسها

والتى بدورها تقول لنا بصلابتها

أن نستمع إلى الصوت الذى بداخلنا

أن ننصت إلى الحكمة التى تقدمها بذور أحلامنا.

فالأحلام تدلنا على الطريق

برموز وإشارات من كل الأنواع

فى كل عمل، وكل لحظة

بين الأشياء وبين الأشخاص

فى السراء والضراء

فى الانتصارات والهزائم.

فما نحلم به، فى المنام أو اليقظة، يعلمنا

أن نرى أنفسنا

أن ننصت إلى أنفسنا

أن ندرك أنفسنا.

يرشدنا إلى الاتجاه الصحيح بأحاسيس داخلية عابرة

أو وميض فكرة مبهرة.

وهكذا نكبر

وننمو

ونتطور.

يومًا ما، بينما نحن نمر

بهذا الحاضر الأبدى الذى نسميه الحياة

فإن بذور أحلامنا

ستتحول إلى أشجار

وستبسط أغصانها

التى ستصل إلى السماء

وكأنها أجنحة عملاقة

وستجمع فى جرة قلم واحدة

ماضينا ومستقبلنا.

ليس هناك ما يدعو للخوف...

فالحكمة الداخلية ترافقها...

لأن كل بذرة تعرف

كيف تصبح شجرة.

سجل وفيات لرجل وحيد

٢٨ نوفمبر ١٩٨٤

اليوم توفى رجل

كان هذا الرجل صديقى.

ويبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا.

من وجهة نظر البعض، كان هذا الرجل فى ريعان شبابه، وخاصة من منظور السن الذى تحدده الإحصائيات فيما يتعلق بالوفاة.

وقد كان لديه وقتٌ كافٍ لتحقيق بعض الإنجازات، ولكن ما اضطره الموت إلى تركه دون إنجاز كان أكثر.

كان هذا الرجل ذا شخصية مسلية ورائعة، ولكن من نوع خاص، وكانت الآراء تختلف حوله بين من يرون أنه كان شخصًا متحذلقًا ولا يمكن تحمله، ومن يرون أنه كان يتمتع بالذكاء وعلى قدر من الغرور الذى يتصف به العباقرة، وبما أننى أعرفه أكثر من أى شخص آخر، أستطيع أن أقول إنه لم يكن عبقريًا ولا متحذلقًا؛ بل كان رجلاً يستمتع بما يفعله، وكان يُعرف نفسه بأنه من أنصار مذهب الاستمتاع؛ لذا كان كما هو منطقى يطبق ذلك.

ربما كانت تلك النزعة العشوائية إلى النشاط واحدة من أكبر الصعوبات التى واجهها فى علاقاته مع الآخرين، كان الجميع تقريبًا بالنسبة إليه يتسمون بالبطء وعدم النشاط، وأتكهن أنه لسبب ما كان دائمًا محاطًا بأشخاص كسالى فكريًا؛ فكان ينتقدهم بلا رحمة، وفى محاولة لتوضيح هذا التصرف - وربما لتبريره - أعتقد أنه لم يكن يعتبر نفسه عبقريًا قط؛ وإنما كان طوال حياته يشعر فى أعماقه أو خلف شخصيته، أنه فى الحقيقة أبله وأحمق وغير فعَّال، أوببساطة أنه ليس قادرًا على القيام بأى عمل مبتكر.

ولكن صديقى، الذى يرقد هنا فى سلام كان يميل إلى الاستعراض أكثر من العمل والنشاط، فإذا أحب لابد أن يكون حبه جياشًا، وإذا رغب كانت رغباته لا نهاية لها، والمهمة التى يقوم بها لا مثيل لها، وطاقته فى العمل لا تنفذ. ولهذا كان فى عمله معالجًا نفسيًا رائعًا؛ حيث كان يتبع فى العلاج طريقة التفريغ النفسى(*). لم يكن هناك شخصٌ غيره لديه القدرة على تفريغ أى شخص من

(*) نوع من أنواع الدعم النفسى الذى يساعد على التخفيف من الكرب المصاحب للأحداث، لدى الأشخاص الذين مروا بظروف ضاغطة غير طبيعية، وهدفه الوقاية من الدخول فى حالة نفسية مزمنة، ويتم عن طريق مساعدة الناس على إعادة التفكير فى الأحداث من منظور آخر، ومن ثم تتغير انفعالاتهم ومشاعرهم المترتبة على تغيير أفكارهم. (المترجمة)

الشحنات الانفعالية التى بداخله. (وإننى أتساءل اليوم: هل هذا ما كان دائمًا يبحث عنه لنفسه؟ فبعد كل شىء، كان يشتكى دائمًا من أنه لم يجد معالجًا نفسيًا لديه القدرة على مساعدته بشكل نهائى. ماذا كان يريد؟ ربما كان يريد معالجًا نفسيًا مثله...).

كل هذا، وفقًا لهذا السياق وعلى تلك الصورة، كان يجعله يبدو شخصًا رائعًا، كيف لك ألا تغرم برجل يلتزم بكل شىء يفعله سواء كان صغيرًا أم كبيرًا، وبالحماس نفسه الذى يفيض بجنون؟ ومع ذلك، كان هناك وجه آخر لهذه العملة السعيدة، ومظهر آخر أكثر شجنًا، كما كان يعجبه أن يقول فى مثل هذا الموقف... ربما كان الجانب غير المرغوب فى هذا النموذج، أو- ولم لا- المحرك لتلك الخصائص، هو التالى:

أن هذا الشخص كان يشعر بالملل بسهولة شديدة.

ربما كان هذا هو الدافع الحقيقى الوحيد لكل تصرفات صديقى وزميلى العزيز؛ فقد كان يغرم بالأشخاص وبالأعمال وبالرياضة وبطرق ارتداء الملابس وبطرق الحديث، وسرعان ما يمل منها. ولنكن صادقين، كان يمل أيضًا من طريقة حياته وطريقة تفكيره، وعلى الرغم من أن اليوم عندما يأتى فعليًا وقت إنهاء الحسابات، يجب أن أعترف أنه كانت هناك أيضًا أشياء لم يمل منها

على الإطلاق؛ فقد كان يعيش لها ومن أجلها، كان يعيش تلك الأشياء بكل العاطفة التى كان يتمتع بها، أو بذلك الغباء الــذى يكابــده فــى تجاربه الأخرى. إن الرمز الأكثر وضوحًا الذى يحضرنى الآن هــو أننى لم أره قط مرهقًا أو ملولاً أو متعبًا أو مبتعدًا عن أبنائه.

(هل سيكون هذا الاستثناء الذى يؤكد القاعدة؟ أو ببساطة، كان ينقصه الوقت كى يشعر بالملل منهم... ولحسن الحظ لكى تبقى ذكراه دائمًا طيبة فى نفوسنا، فإن هذا لن نعلمه أبدًا).

من الواضح – دون أدنى شك – أن هذا الرجل كان يحب أبناءه أكثر من أى شىء آخر، هل كان يحب أى شخص كما كان يحب أبناءه؟ (ليس بقوة حبه لأبنائه وإنما فقط مثلما كان يحب أبناءه)، من الزاوية الأكثر بعدًا نسأل: هل أحب أحدًا أكثر من مرة (بالمعنى الذى كان يُستَخدَم به لفظ الحب)؟ بمعنى: هل تَقَبَّلَ أى شخص تمامًا كما هو؟ هذا هو اللغز، يُعد هذا شيئًا مجهولاً لكُتَّاب السيرة الذاتية الخاصة به، فى رأيى المتواضع أن ذلك الرجل كان فى حالة حب مستمرة، ما عدا... عندما كان يحب شخصًا ما بعينه، لأنه عندما كان يحب شخصًا ما بعينه، كان يتلافى الحب والقبول والكرم ويحل بدلاً منها مطالبه السيئة، وآماله العليلة، وخضوعه العبودى للآخر.

حيث إنه من الممكن أن نشك إذا كان قد أحب من قبل أم لا، ولكن ليس هناك مجالٌ للشك فى أنه لم يشعر قط بأنه بالفعل محبوب من الآخرين.

فخلف هذا الرجل القادر على فعل كل شيء، القوى الذى لا يمكن النيل منه، الباندوريكو(*) (والذى يستحق إطلاق هذا التعبير الجديد عليه)، وفى ظل هذا الإنسان المرغوب فيه والذى ينظر إليه الناس بإعجاب، كان يسير إنسان آخر متخفيًا كشخص مخيف وهو السيد هايد، وذلك ليس بسبب قسوته وإنما لاحتياجه للعطف. كان هناك رجلٌ آخر ملىء بالنقائص، ضعيف، متطلب، ممل، بائس، شخص غير محبوب، لا يشعر بالأمان وكثير الاستجداء... فقد قضى الرجل أكثر من نصف حياته وهو يحاول أن يلتقى وجهًا لوجه مع ذاته المختبئة فى داخله.

وفى النهاية نجح فى ذلك، ليس لكونه شجاعًا فهو لم يكن كذلك، وإنما لكونه عنيدًا.

فعندما اكتشف نفسه بعد مرور عشرين عامًا من البحث (أو هكذا اعتقد أنه قام باكتشاف نفسه)، اكتشف أيضًا (واعتقد أنه اكتشف ذلك) أن الآخرين الذين كان يحبهم مازالوا يطلبون منه أن يكون كما كان دائمًا.

(*) فى إشارة إلى الأسطورة اليونانية باندورا وهى: امرأة وُهبت كل الصفات الحسنة، وتذهب الأسطورة إلى أن باندورا أعطيت صندوقًا لتحمله وحُرم عليها أن تفتحه، لكنها ضعفت أمام فضولها حتى غلبها على أمرها ففتحته؛ فإذا بجميع الصفات الشريرة تخرج من هذا الصندوق لتتسلط على بنى البشر، ولم يبق فى الصندوق غير الأمل، فكانت بذلك سببًا فى تبديد الخير وانتشار جميع الآثام والشرور. (المترجمة).

فاستسلم هو بطريقة ما لذلك.

فقد قبِل أن يستمر إلى الأبد فى لعب دوره بطلاً خارقًا للعادة، منكرًا بشدة الليالى المظلمة التى كان يعيشها، فلم يكن هو نفسه يعرف كيف كان يبذل قصارى جهده كى يفعل ذلك، ولكنه لم يثق قط فى أحد. أريد بلفظ الثقة، الثقة التى كان يمنحها هو دون قيد أو شرط، ففى داخله، كان يعلم أنه لا يوجد أحد يثق فى الآخر دون قيد أو شرط، ولكنه لم يستطع قط أن يتجنب هذا البحث السخيف عن إنسان يمكنه أن يضع رأسه على حجره ببراءة وبلا تحفظ، مغلقًا عينيه دون أن يحمل هم الدفاع عن نفسه... ودون أى شكوك أو مخاوف.

ربما اليوم أتجرأ أن أقول ما لم أقله له يومًا فى وجهه:

إنك لم تثق قط فى أى شخص.

يؤلمنى أن أفكر فيه هكذا، وهو الصديق الحقيقى دائم البذل، فمن منكم يا من لا تزالون على قيد الحياة، يمكنه أن يؤكد أنه كان صديقه؟

ربما يستطيع الكثيرون الحكم بأنه كان صديقًا لهم؛ ولكن من يمكنه تأكيد أن تلك العلاقة كانت متبادلة؟ فى صراحة أقول إننى أعتقد أنه لا يوجد أحد، لأننى أشك فى أن يكون، وهو بكامل إرادته،

لديه القدرة على الثقة فيمن حوله، ليس بسبب صعوبة ذلك على الآخرين وإنما لعدم قدرته هو على الوثوق فى الآخرين.

ومع ذلك فمن الممكن أن أتخيل أنه يجب أن يكون قد فعلها ذات مرة ووثق فى شخص ما.

ربما ذات مرة، منذ زمن بعيد، وثق فى شخص ما.

ربما وثق فى أشخاص وقاموا بالنصب عليه.

ولكن ما هذا المبرر السخيف!

ماذا يغير من الأمر هذا الغش الذى من المفترض أنه حدث؟ هل جعله أقل نفاقًا؟ أو ربما أزاح عنه الشعور بالمسئولية لعدم قدرته على تكوين صداقات؟ (ماعدا واحدًا يجب أن أعترف أنه أنقذ نفسه بالهجرة بعيدًا) ربما ترك جانبًا انضمامه إلى الذى نسميه "فشل"؟

لو كان يستمع بنفسه لما يقوله الآخرون، لما قبل هذا الفهم وهذه الرأفة وتلك الشفقة.

هناك الكثير من الأشياء التى لا تزال غير واضحة فى هذه الحياة المعقدة!

واحد من هذه الأشياء الأكثر غموضًا، التى عادةً ما كانت تشغل حيزًا فى عقل من كانوا يعرفونه ويحبونه، هو ما كان يحدث

فى حياته الزوجية. ماذا كان يربط هذا الرجل بزوجته؟ مـــاذا كـــان يشعر تجاهها؟ لقد قاطع الموت إجابة الزمن الصادقة المسلم بها.

الحق أنه إذا نحينا المناقشات جانبًا، ووضعنا الشكوك على الهامش، وأخذنا فى اعتبارنا المشاجرات؛ يمكننا القول إن هذا الرجل ظل حتى يوم وفاته يقيم مع زوجته.

سيكون نوعًا من تبسيط الأمور التفكير فى أنه ظل معها مـــن أجل أولاده.

كما أنه من المرفوض الاعتقاد بأنه كان سعيدًا تمامًا فى هذه العلاقة.

ومن الطفولى التفكير فى أنه كان يعتقد أنه ليست لديه القدرة على إغواء امرأة أخرى أو الوقوع فى حبال امرأة أخرى.

ومن الغباء اعتقاد أنه كان يجهل ما كان يحدث، أو ما كان يرفضه...

أخيرًا، هل بقى بسبب حبه لهذه المرأة، أم ظل متمسكًا بها بسبب مخاوفه؟

لو أن أحدًا سأله هذا السؤال لعلم أنه كان يحبها كثيرًا، ولكـــن ما لا أحد يعلمه هو إلى متى ظل محبًّا لها، هل كان يحبهـــا لحظـــة

وفاته؟ أعتقد أنه بالفعل كان يحبها حتى لحظة وفاته، ومع ذلك فقد كان لدى زوجته الكثير من الأمور المعلقة الخاصة به، أو بالحياة التى كان يوفرها لها فى ذلك الوقت، أو فيما يتعلق بالدور الذى كانت تلعبه هى فى هذه العلاقة؛ فقد كانت- ولها الحق فى ذلك- تشعر بالحقد والفراغ دون الأشياء التى كان يطالبها بها بصورة زائدة عن الحد. وأقول إنها كانت على حق؛ حيث إننى أعتقد أن الحياة معه لم تكن بالضرورة سهلة ولا مرضية.

ومع ذلك فاليوم أمام هذا الجثمان، يهمنى فقط التحدث عن الرجل الذى كان يعتقد أنه كان زوجًا ممتازًا على الأقل قبل أن يشعر بالملل ويترك الكفاح، أو بالأحرى يدع الكفاح على عاتقها وحدها؛ فقد كان يعتقد أنه تحمل ما لا يطاق، وتساهل فى كل شيء، وبذل كل ما فى وسعه ليكونا الزوجين الذين طالما حلم بهما.

ومن الحقيقى أنهما لم يكن لديهما الوقت الكافى لتحقيق ذلك.

كان هذا الغبى دائمًا ما يُحَمِّل زوجته مسئولية تلك الخلافات، وبطريقة عادلة أوغير عادلة توفى وهو يعتقد أنها لم تكن تتصرف بما يتناسب مع الظروف المحيطة.

وطوال سنواته الأخيرة، كان لديه أيضًا أحقاد وضغائن تلوث حياته، ولم يفلح قط فى العثور على ماء فى ملاذ هادئ يغسل فيه تراكمات السنين.

ومن المهم معرفة أن ما يفوق حب هذا الرجل لزوجته بشدة هو طريقة حبه لها؛ لأنه (وهذا لا يمكن إنكاره) لم يحب أحدًا قط كما أحبها! قط!

وربما كانت هذه هى المشكلة.

فقد منحها هى فقط امتياز رؤيته كما هو.

فيما كان يجرؤ على إظهار الوجه الضعيف وغير المستقل لشخصيته.

ولكنها أيضًا لم تستطع بدورها تقبله واحتواءه.

وإذا استطاعت... لما أرادت، وإذا أرادت فلم يكن ليعلم ذلك قط.

فلماذا استمر فى تلك العلاقة؟ كان يعرف ويدرك ويكرر أن الحب ليس كافيًا، فماذا غير الحب؟

هل هو الخوف!

من المحتمل جدًا أن يكون هذا كلمة السر لكثير من المواقف، وإجابة على لغز الزواج المطروح: الخوف؛ ذلك أنه مثلما كان قادرًا على العمل بحرفية ودون أى قيود، وكان جريئًا فى نشاطه وحيويته، كان أيضًا فى داخله إنسانًا ضعيفًا لا يشعر بالأمان.

أحيانًا كان يعتقد أن التشخيص النفسى الحقيقى له يرتبط بمرض الفوبيا(*) أكثر من أى شىء آخر، فقد أدرك منذ وقت طويل أن الهيستيريا التى أصابته كانت بالتحديد مجرد موقف، أو آلية دفاع، أو فى أفضل الأحوال كانت تعبر عن رغبة؛ فقد كان هذا الرجل مليئًا بالمخاوف، بداية من المخاوف الغبية والتافهة، كانخلاع قلبه بشدة عندما يرن جرس الهاتف بعد الساعة الثانية عشرة مساءً، وحتى إصابته بالرعب والهلع أمام مخاوفه من إمكانية أن يصيب أحد أبنائه أى مكروه (فيكفى السعال أو أن يشعر أى منهم بصداع فقط كى يخاصم النوم عينيه أو على الأقل كى لا يشعر بالسلام النفسى). وبين الجانبين السطحى والعميق، يأتى خوفه من الموت، من موته، هذا الخوف الذى صاحبه حتى آخر يوم فى حياته مدمرًا بهذا جزءًا كبيرًا منها، ففى الآونة الأخيرة كان يتصرف فى كثير من الأحيان كشخص

(*) مرض نفسى، ويعنى الخوف الشديد والمتواصل من مواقف أو نشاطات أو أجسام معينة أو أشخاص، ويسمى أيضًا مرض الرهاب. (المترجمة)

مصاب بوسواس المرض، مهتمًا بنفسه وبـــضربات قلبـــه وبآلامـــه العضلية أو بأى تهيج لجلده أو للأغشية المخاطية. كان يزعجه دائمًا التفكير فى أنه مصاب بوسواس المرض، ربما لأنه كان يعلم أن هذا الفصل من حياته الذى تسبب فى موته سيظل متخفيًا وراء مخاوفـــه الدائمة من الإصابة بالأمراض. هـــل كانـــت إصـــابته بالوســـواس المرضى بمثابة نبوءة مسبقة بقرب وفاته؟ هل كان خوفه من الموت جزءًا من تركيبته النفسية أو جزءًا من إحساسه الباراســـيكولوجى(*) المُسبق بالموت؟

فاليوم، وبعد موته الذى لا رجعة فيه، هذا القلق أصبح قليلاً أو عديم الأهمية. فإذا انظرنا بالفعل لهذه القصة متأملين الماضى، فـــإن الموت المبكر أيضًا من الممكن تفسيره على أنـــه النهايـــة الطبيعيـــة والمرغوب فيها لكائن مخيف أسرف فى استهلاك طاقاته، ولكنه لـــم يكن يريد أن يموت.

أو على الأقل كان يحب الحياة أكثر من الموت، لأنـــه علـــى الرغم من كل ما ذكر، كان هذا الرجل يستمتع بالحياة، والمحيطـــون

(*) إشارة إلى علم الباراسيكولوجى (ما وراء علم النفس)، ويطلق عليه أيضًا علم نفس الخوارق. يبحث هذا العلم فى مظاهر مختلفة منها التخاطر والتنبؤ والتنويم المغناطيسى. (المترجمة)

به على حسب اعتقاده، كانوا يستمتعون هم أيضًا بوجوده، ولكن حذار تلك المتعة المتبادلة كان لا بد أن تكون دائمًا "عن بعد".

فقد كانت لديه عادة كريهة بغيضة أو بالأحرى إدمان مخيف؛ هذا الميل السخيف للصراحة الذى لم يكن العالم المحيط به معتادًا عليه، ولم يفكر فى التعود عليه. وهذه العادة الغريبة والسخيفة من الصراحة كانت تجلب له الكثير من المشكلات، فكان هذا الرجل يقول: " أنا أفضل معالج نفسى". بينما كان الناس يصفونه "بالفشّار".

كان هذا يحدث فى المواقف التى يهرب منها الآخرون، وكان الناس يصفونه بالقادر على فعل كل شىء .

كان يعتز بما حققه، تحديدًا بما استطاع الحصول عليه، وكان العالم المحيط به يعاقبه بتهمة الغرور.

كان ينطق بالحقيقة عندما يقول "لا أريد رؤيتك"، وكان من يخاطبه يصرخ فيه قائلاً إنه عدوانى.

كان لا يذهب إلى حيث لا يريد الذهاب، وكان يتم وصفه بأنه غير اجتماعى.

كان يرفض الكذب وكانوا يصفونه بالقسوة.

كان يرفض أن يكون "مثل الآخرين"، فقط كى لا يختفى بينهم، وكان الجميع يتهمونه بأنه يريد أن يكون محور الاهتمام.

يجب أن نتقبل ذلك.

فقد كان طبيبًا وإخصائيًا ومعالجًا ومحللاً نفسيًا وخبيرًا تحليليًّا ومعلمًا في مجال الاتصالات ومتخصصًا في علم النفس الغشتلتي(*)، وإلى حد ما كان مراقبًا ذكيًّا لما يحدث حوله.

فهو، وإن كان ذلك يبدو غريبًا، **لم يفهم الناس قط!**

ماذا يتبقى من عبور هذا الإنسان بتلك الحياة؟

هل كانت حياته تستحق العناء؟

يتبقى أبناؤه، ولهذا فقط كانت حياته بالفعل تستحق العناء، ويتبقى الكثير أو القليل، أعتقد أنه يتبقى الكثير مما أعطاه وتركه وعلمه وساعد به مرضاه.

تتبقى استمرارية مهمته في هيئة أشخاص آخرين يعملون في الصحة والتعليم، والذين تعلموا أو قالوا إنهم تعلموا منه.

يتبقى الدعم الاقتصادي القوي الذي كان يشغل باله كثيرًا في السنوات الأخيرة.

(*) علم مختص بدراسة الإدراك والسلوك. (المترجمة)

يتبقى التفكير وطريقة كتابة هذا الإنسان، يتبقى ما عُرف عن مزاجه الطيب وابتسامته وأصالته.

تتبقى حقيقة إمكانية و"وجوب" الكفاح من أجل الأيديولوجية الخاصة.

يرقد هنا إنسان من الممكن أن يقال عنه

دون خوف من ارتكاب خطأ،

إنه فعل كل ما فى وسعه لكى يكون سعيدًا

واستطاع أن يحقق ذلك!

ربما بعد كل ما ذكر، أصبح شاهد القبر الذى طلب بنفسه أن يتم كتابته على قبره، ذا معنى:

أن تكون سعيدًا هو أن تكون على يقين من أنك تسير على الطريق الصحيح.

مكان فى الغابة

فى أكتوبر عام ١٩٩٦ سافرت إلى نيويورك

لكى أبدأ عامى السابع والأربعين مع "أخى فى الحياة" يوشوا.

وقد أهدانى شقيقه ديفيد هذه الحكاية الصوفية

التى أختارها اليوم كى أشاركك فيها هدية وداع.

هذه القصة تدور حول حاخام صوفى مشهور يدعى بهال شيم توف، كان بهال شيم توف معروفًا بدرجة كبيرة فى قريته، فقد كان الجميع يقولون إنه رجل ورع وطيب وعفيف ونقى، وإن الرب كان ينصت لكلماته حين يتحدث.

وصار هناك تقليد فى تلك القرية، وهو أن كل من لديه رغبة يود تحقيقها أو فى حاجة إلى أى شىء لم يتمكن من الحصول عليه، فعليه أن يذهب لرؤية الحاخام.

كان بهال شيم توف يجتمع بالناس مرة فى العام، فى يوم خاص يقوم باختياره، وكانوا يذهبون معًا إلى مكان خاص كان يعرفه فى وسط الغابة.

وتحكى الأسطورة أنه ذات مرة، قام بهال شيم توف بإشعال نار بأغصان وأوراق الأشجار بطريقة خاصة وجميلة جدًا، وبعد ذلك أخذ يرنم صلاة بصوت خافت جدًا وكأنه يقولها لنفسه.

ويقولون:

إن الرب كان يحب تلك الكلمات التى كان يتلفظ بها بهال شيم توف، وكانت النار المشتعلة بتلك الطريقة تحوز إعجابه، لـذا أحـب كثيرًا اجتماع الناس هكذا فى ذلك المكان من الغابة... ولأنه لم يكـن يريد رد طلب لبهال شيم توف كان يلبى رغبة كل الأشخاص الـذين كانوا يوجدون هناك.

وعندما توفى الحاخام أدرك الناس أنه ليس هناك من يعـرف الكلمات التى كان يتلفظ بها بهال شيم توف، عنـدما كـانوا جميعًـا يذهبون لطلب شىء من الرب.

ولكنهم كانوا يعرفون المكان الذى كانوا يذهبون إليه فى الغابة، ويعرفون كيفية إشعال النار.

واتباعًا للتقليد الذى وضعه بهال شيم توف، كان كل الأشخاص الذين لديهم احتياجات ورغبات لم يتم تحقيقها يجتمعون مرة فى العام، فى ذلك المكان نفسه فى الغابة، كانوا يقومون بإشعال النار بالطريقة نفسها التى كانوا قد تعلموها من الحاخام العجوز، ولأنهم كانوا لا يعرفون الكلمات الخاصة به، كانوا يقومون بغناء أى أغنية أو يرتلون

مزامير، أو كان ينظر بعضهم إلى بعض فقط، ويتحدثون فى أى موضوع فى المكان نفسه حول النار.

ويقال:

إن الرب كان يحب كثيرًا النار المشتعلة وذلك المكان فى الغابة وتلك الناس المجتمعة... وأنه على الرغم من أن أحدًا لم يكن يعرف الكلمات المناسبة التى يجب أن تقال، كان الرب يلبى رغبات جميع الذين كانوا يوجدون هناك.

وبمرور الوقت ومن جيل إلى آخر، ضاعت الحكمة

وها نحن الآن.

لانعلم أين يوجد هذا المكان فى الغابة.

لا نعلم ما هى الكلمات

ولا نعلم حتى كيفية إشعال النار كما كان بهال شيم توف يشعلها.

ومع ذلك إن هناك شيئًا نعرفه بالفعل.

نعرف هذه القصة.

نعرف هذه الحكاية.

ويقال:

إن الرب يعشق هذه الحكاية بشدة،

ويحب هذه القصة كثيرًا،

ويكفى أن يقوم أحد بحكايتها،

وأن يقوم أحد بسماعها،

ليقوم الرب وهو راض عنهم بتلبية احتياجاتهم وتحقيق أى رغبة لكل من يشارك فى هذه اللحظة.

آمين.

المؤلف فى سطور:

خورخى بوكاى

- طبيب ومعالج نفسى أرجنتينى، ولد فى بوينس أيـــرس عام ١٩٤٩ لعائلة متواضعة فى حى فلوريستا.

- تخرج طبيبًا غام ١٩٧٣ فى جامعة بـــوينس آيــرس وتخصص فى الأمراض العقلية.

- عمل بائعًا متجولاً لبيع الجوارب والكتـــب، وممـــثلاً، وطبيبًا نفسيًا، ومعالجًا نفسيًّا، ومحاضرًا، وكاتبًا.

- كتب العديد من الأعمال التى لاقت نجاحًا عالميًّا كبيرًا. من أهم أعماله: "رسائل إلى كلاوديا"، و"دعنى أحكـــى لـــك"، و"حكايات للتفكير"، و"حب بأعين مفتوحة".

- وهو أيضًا مؤلِّف الكتب الأربعة التى تـــشكل سلـــسلة خرائط الطريق: "طريق الاعتماد على الذات"، و"طريق اللقاء"، و"طريق الدموع"، و"طريق السعادة".

- أصبحت أعماله الأكثر مبيعًا على مستوى العالم وتمت ترجمتها إلى أكثر من سبع وعشرين لغة.

المتـرجمة في سطور:

أمل محمد بكرى

- حاصلة على ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير عام جيد جـدًا مـع مرتبة الشرف- كلية الدراسات الإنسانية- جامعة الأزهر عام ٢٠٠٧.

- حاصلة على دبلومـة اللغـة الإسـبانية كلغـة أجنبيـة DELE(المستوى المتقدم C2) عام ٢٠٠٩.

- عملت مدرسة للغة الإسبانية بمعهد اللغات للقوات المسلحة (مودلى).

- شاركت فى ورشة عمل المجلة الإسبانية " الأجمـل" التـى أقيمت في مقر المركز الثقافى الإسبانى بالقاهرة (ثربانتس).

- تدربت على الترجمة فى العديد من الجهات، ومنها: وكالـة الأخبار الإسبانية فى مصر (إفى)، وقطاع الأخبار(القسم الإسـبانى) فى التلفزيون المصرى، والإذاعة الموجهة لأمريكـا اللاتينيـة فـى الإذاعة المصرية، ومركز الترجمة الإلكترونية فى التلفزيون المصرى.

- عملت مترجمة لغة إسبانية وإنجليزيـة بـوزارة الداخليـة المصرية.

المراجعة فى السطور:

د. عائشة محمود سويلم

أستاذ الأدب الإسبانى بكلية الألسن جامعة عين شمس.

-حاصلة على ليسانس الألسن فى اللغة الإسبانية بتقدير عام جيد جدًا مع مرتبة الشرف.

-حاصلة على ماجستير الألسن فى اللغة الإسبانية وآدابها بتقدير ممتاز عام ١٩٨٩.

-حاصلة على دكتوراه فى فقه اللغة الإسبانية من جامعة مدريد المستقلة عام ١٩٩٧ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

-رقيت لدرجة أستاذ مساعد بكلية الألسن عام ٢٠٠٣.

-رئيسة قسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة جامعة ٦ أكتوبر من عام ٢٠٠٤ إلى ٢٠١٠.

لها العديد من الترجمات منها:

- مجموعة قصصية للكاتب الإسبانى كلاربن.

- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٦.

- مسرحية قروية من خيتافى للوبى دى بيفا، المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٧.

- كتاب الحروب الأهلية فى غرناطة، المركز القومى للترجمة، عام ٢٠٠٩.

- قامت أيضًا بنشر العديد من الدراسات حول الأدب الإسبانى والإسبانو أمريكى فى العديد من المجلات والدوريات العلمية المصرية والدولية.

التصحيح اللغوى:هالـــة القاضى

الإشـــراف الفنى: حســـن كامل



لقد ولدت فجر اليوم
وعشت طفولتى فى الصباح
وبعد الظهيرة
اجتزت مرحلة المراهقة
وليس الأمر أننى يفزعنى
أن يجرى الزمن بي سريعًا
فقط يزعجنى قليلاً التفكير
فى أن غداً ربما
أصير
عجوزاً إلى الحد الذى يجعلني
لا أستطيع إنجاز ما تركته معلقاً.

تصميم الغلاف: نسرين كشك